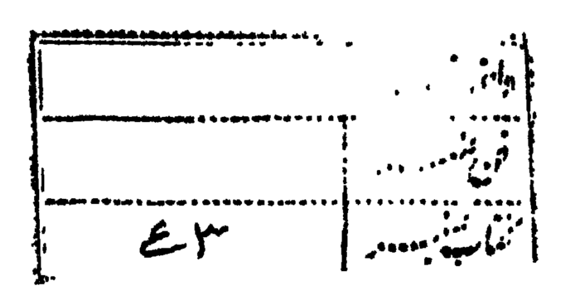
احلام الفلاسفة

وهو ما تخيله العلماء والادباء والفلاسفة من المثل العليا للهيئة الاجتماعية وما وصفوه من النظم الخيالية للحكومة والتعليم والزواج والمدن من عهد الاغريق الى الآن

بقلم

سلامه موسى

طبع بمطبعة الهلال بمصر
١٩٢٦


کتاب نمبر
۴۳

دار الهلال للطبع والنشر

أحلام الفلاسفة

وهو ما تخيله العلماء والأدباء [illegible] من
المثل العليا [illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

سلامه موسى

طبع بمطبعة [illegible]
١٩٢٦

المقدمة

لكل منا حياتان . حياة الواقع التي يعيشها الانسان متأثراً بالوسط الزماني والمكاني وحياة الخيال التي يرغب في أن يعيشها . والفرق بين الحياتين هو فرق بين الوجود الناقص و بين المتخيل الكامل أو بين ما هو موجود على الرغم منا وبين ما يجب أن يوجد وفق خيالنا وطبق رغائبنا

والعقل الانساني مطبوع على أن يتمم بخياله مايراه ناقصاً في الحقائق الواقعة حوله . ومهما قيدنا العقل ومنعناه من التفكير في ما يهوى فانه ينفلت منا ولو وقت النوم فيعيضنا من نقصنا الحقيقي كمالاً متوهماً . فمن جاع في النهار وقت صحوه أكل في الليل أشهى الاطعمة وقت نومه . ومن تحرق في النهار لرؤية حبيبته رأى طيفها يتهادى في الليل وهو مستغرق في سباته . بل نحن نحلم في يقظتنا فنسلي الخواطر

الجميلة لنرى القصر الفخم الذي نسكن فيه بخيالنا والجياد المطهمة تجر عرباتنا كما نرى الخدم والاتباع نخاطبهم بابهجة الرياسة ونحن في فراش وثير لنا زوجة محبة وأولاد مطيعون وحدائق غناء تتنزه فيها. كل هذا وأكثر منه نراه في خيالنا لاننا نشعر بالنقص في الحقائق الواقعة حولنا. ومن ضروب لراحة التي يلجأ اليها العقل أن يعيد التوازن في رغبات الجسم وشهوات النفس. وهذا هو السبب في أن الاستغراق في الضحك يعقبه شيء من الغم. والانغماس في الشهوة يليها شيء من الاشمئزاز والفتور. فاذا كانت حقائق الحياة مؤلمة تعكر صفاء الذهن وتكده بالتفكير والتدبير لملافاة تكاليفها وآلامها كان من ضروب الراحة لهذا الذهن أن يعمد الى ما يناقض هذه الحقائق من الخيال فيرسم لنفسه عالماً آخر غير هذا العالم كله نعيم وسرور

فكل منا يعيش اذن في عالمين. عالم الواقع وهو أبداً ناقص وعالم الخيال وهو ابداً كامل على النحو

الذي نفهم به معنى الكمال . فاذا آلمتنا الحقيقة لجأنا الى الخيال أو قل بعبارة أخرى اذا رأينا الواقع خارجنا ناقصاً مختلاً مؤلماً فررنا منه الى الخيال داخل اذهاننا فاعتضنا من الحقيقة حلماً

وإياك واحتقار الاحلام . وهل تحتقر الآلهة ؟

اعتبر المصريين القدماء لما استبدت بسواد الامة فئة قليلة العدد من الامراء والكهنة والاجناد واستحوزوا على ثروة البلاد ورأى أفراد هذا السواد أنهم يعيشون في حرمان لا ينعمون بشيء من نعم هذه الحياة عمدوا الى خيالهم فاخترعوا عالماً آخر يعيش فيه المحرومون المظلومون يؤجرون أجراً حسناً على ما قاسوه في هذا العالم وينعمون هناك بما لم يقدروا أن ينعموا به هنا . فكأن خيالهم قد ثار على الحقيقة وخرج عقلهم الباطن على عقلهم الظاهر وأوجد نوعاً من التوازن في حياتهم بحيث جعل ما توهمه من ملذات العالم الثاني بنسبة ما هو واقع من آلام هذ

العالم الاول . ولعلك من هنا تدرك تلك النزعة الالحادية التي تعتري بعض الشياطين من الاشتراكيين والشيوعيين حين يقاومون الاديان ويحضون السواد على تركها إذ يخشون هذا التوازن الذى يحدثه الايمان بعالم آخر وما يعقبه من تهدئة انفس العمال وهم انما يرغبون في إحداث القلق والاستعار في نفوسهم

والفيلسوف والعالم والاديب كلهم يتخيل ويحلم . وهم أكثر خيالاً وحلماً اذا اضطربت أحوال المعيشة وتنافر الخيال المشتهى مع الواقع الحتم . ونحن في كل أزمه تقع أو نكبة تمر بنا نجدنا إزاء ثلاثة حلول لنا أن نختار منها واحداً . فإما أن نفر كما يفعل الناسك يزهد في الحياة فيلجأ الى صومعته مهزوما كالاسد الجريح يذهب الى مغارته . وإما أن نكافح مدافعين وهذا ما يفعله معظمنا . وإما أن نهاجم وهذا ما يفعله الاديب أو العالم أو الفيلسوف . فهو لا يفر وهو أيضا لا يكتفي بالمكافحة وانما يتخيل وسطاً يجعله

بديلا من هـذا الوسط الحقيق فيهاجه به ويدعو الناس الى حلمه حتى يستبدلوا بحقائقهم خياله . ولـكل انسان مزاج خاص . ولـكن أمزجة الناس متداخلة فليس فينا من لا يفكر في الفرار بعض الاحيان . ولم تكن المهاجرة الى اميركا إلا فراراً من أوربا . وليس فينا من لا يكافح بعض الاحيان بل هـذا هو شأننا طول النهار كما أنه ليس فينا من لا يتخيل ويحلم ولو بضع دقائق بعـد الغداء حين يطمو العقل الباطن بالعقل الظاهر وتتسلسل الخواطر بلا قيد ولا شرط

والفيلسوف ومن اليـه من المفكرين يختلفون عن الكاهن المصري القديم الذي يمثل أحلام سواد الامة من حيث أنهم لا يجعلون ميدان حلمهم في العالم الثاني . فإن همومهم الذهنية مقصورة على هـذا العالم والناس على الارض لا الملائكة في السماء هم موضوع كلامهم وخيالهم . فهم يرون من الخبط والخلط في الهيئة الاجتماعية ومن الظلم والاسراف في

معاملات النـاس ما يحثهم على اختراع نظام أوفى يضمن لهم أكمل ما يتوهمون من صور العدالة والصحة والعمار . فهم يحلمون انا ونحن أحياء على هذه الارض ولا يبالون بنا بعد موتنا لان الحياة لا الموت هي موضوع تفكيرهم وغاية نظرهم في الاصلاح

ولا تنس أن كل اصلاح حدث في الماضي أو سيحدث في المستقبل انمـا هو حلم من أحلام أحد المفكرين . وقد صدق أناطول فرانس في قوله : « لولا أحلام الفلاسفه فى الازمنـة الماضية لـكان الناس يعيشون الى الآن كما كانوا يعيشون قديماً عراة أشقياء في الـكهوف . لقد كان انشاء أول مدينـة خيالاً من أخيلة المفـكرين . . . ومن الاحلام السخية ظهرت الحقائق النافعه . والخيال هو مبدأ التقدم وفيه محاولة إيجاد المستقبل الحسن »

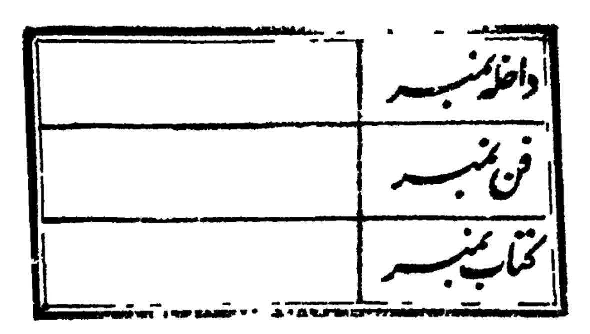
وفيما يلي قد لخصنا للقراء بعض الاحلام الشهيرة التي رآها الفلاسفة في يقظتهم وتخيلوها عن رؤية

وتدبير يرجون بها اصلاح الهيئة الاجتماعية ومنها يقف القارىء على ضروب الاصلاح التي تخيلها هؤلاء الفلاسفة وما كان من اثر الوسط في كل منهم وكيف كانوا يتخيلون المدينة الفاضلة والحكومة الفاضلة وأحسن ضروب الزواج وخير نظام للتربيـة وما الى ذلك

ولا شك في أن القارىء وهو يتنقل من ترسيم الى ترسيم ومن برنامج الى آخر سيدفعه خياله الى أن يحلم هو أيضاً حلماً قد يظن أنه جدير بأن يحشر بين هذه الاحلام وسواء أكان هذا أم لم يكن فالمؤلف قد تجرأ وحشر حلمه بينها في « طوبى » توهمها كاملة مستوفية شروط السعادة لمن به كفاية انسعادة

سلامه موسى

فهرس الكتاب


داخلہ نمبر
فن نمبر
کتاب نمبر

جمهورية افلاطون

(وُلد سنة ٤٢٧ ومات سنة ٣٤٧ ق . م)

يتسم الادب الاغريقي بشيئين : المجازفة ، والحرية . ولهذا السبب كان الاغريق ولا يزالون للآن مبعث الوحي لكل نهضة أو تجديد في الادب . لان المجدد أو الناهض لا يكون كذلك إلا إذا تخلص من القيود العديدة سواء أكان مصدرها الشرائع أم التقاليد . ثم هو لن يكون مجدداً إلا إذا كان احساسه بالحرية أكثر من احساس غيره بها فما يعده غيره فيه مخاطرة يراها هو في نفســه رياضة فكرية ليس فيها شيء من المجازفة . فاذا قرأ الاغريق وأشرب روحهم صار مثلهم يجري على سنتهم في حرية التفكير والجراءة في الاستنتاج حتى تصير هذه الجراءة طبيعة فيه قد اكتسبها بالالفة مع هؤلاء الاغريق

والحق انه من عجائب التاريخ أن تقوم نهضــة أوربا في القرن الخامس عشر على درس اناس مضى عليهم ألفا عام . إذ اننا ننتظر من المجدد أن يترك القديم في بلاه وينظر في

الحاضر ويتطلع الى المستقبل . ولـكن الاغريق على قدمهم وبلاهم لا نزال في آثارهم الفكرية ما ينبه أذهاننا ويضطرنا الى النظر في أي موضوع نعالجه من زاوية غير تلك التي ألفناها في البحث . وليس في معلومات الاغريق أو معارفهم ما نحتاج إلى معرفته ولـكن نزعة الحرية والمجازفة في البحث هي التي نحتاج اليها في كل نهضة أو حركة تجديدية . ومن هنا كانت الروح الاغريقيــة على الدوام مبعث النهضات الفكرية في الادب والفلسفة

ولنضرب بعض الامثلة على جراءة الاغريق في تفكيرهم :
فقد كان ارسطوطاليس يقرر ان الآلهة على الرغم من قدرتها لا تستطيع أن تبدل النواميس الطبيعية . فكان بذلك لا يقر لها بمعجزات

وكان توقيديد ينعي على الناس زواجهم جزافاً من غير انتقاء ويقول اننا نعنى بتأصيل الخراف والخيول أكثر مما نعنى بالانسان وان كرام النـاس أقل من كرام الخيل لان لـكل أحد من الناس الحق في التناسل . وكان ارسطوطاليس أيضاً يعد الجمال شرطاً من شروط السعادة

وكان افلاطون يبحث في شيوعية النساء

ففي مثل هذا الوسط الحر نشأ أدب نزيه خلو من القيود

لا يزال الى الآن كما قلنا يوحي الى الكتاب والادباء روح التفكير النزيه الحر الحري.

ولذلك يجدر بنا أن نبحث حلم افلاطون في أول ما نبحث من أحلام الفلاسفة لنرى أي مدينة فاضلة تخيلها لضمان سعادة الناس وراحتهم . فان جميع من عالجوا هذا الموضوع بعده قد ساروا على طريق حاول هو من قبلهم أن يعبده لهم . فما من واحد منهم كتب في « المدينة الفاضلة » إلا وكانت « جمهورية » افلاطون وراء ذهنه تلهمه وتجرئه وتسدده . ولا شك في ان المدينة الفاضلة كما توهمها الفارابي ترجع الى افلاطون في الايحاء بل في بعض الترسيم أيضاً ولكن الفارابي جرياً وراء النزعة التي كانت سائدة في عصره اعتمد على « إلهيات » افلاطون وبحثها وشرحها أكثر مما اعتمد على ترسيم الجمهورية الانساني حتى ليكاد يفقد الانسان الصلة بين « المدينة الفاضلة » للفارابي و « الجمهورية » لافلاطون

كان العصر بين سنة ٦٠٠ وبين سنة ٣٠٠ قبل الميلاد عصر بناء المدن في بلاد الاغريق . فلم تكن الدولة كما نعرفها الآن تؤلف من عدة مدن وقرى ومستعمرات خارجة عنها بعيدة منها معروفة عند الاغريق في بلادهم وان كانوا قد

سمعوا عنها عند الفرس والمصريين . فكانوا اذا تصوروا حكومة لم يتجسم في أذهانهم سوى المدينة أما القطر فلم تكن له شخصية قانونية عندهم . ولم يكن افلاطون هو الوحيد الذي تخيل حلم المثل الاعلى للحكومة والهيئة الاجتماعية فقد ذكر ارسطوطاليس ان من يدعى فالياس قد تخيل مثل هذا الخيال وقال بوجوب المساواة في حقوق الامتلاك . وان هبودامس أيضاً قد وضع كتاباً في تخطيط المدينة الفاضلة

ولكن « جمهورية » افلاطون هي الأثر الباقي من تلك الاحلام وقد تخيلها عقب تلك الحرب الرائعة التي نشبت بين اسبارطة وبين اثينا وطالت مدتها وامتد لهبها الى جملة بلاد فخربتها ونشرت الفوضى في نظام هيئاتها الاجتماعية . والخراب والدمار والفوضى التي تحدثها الحروب تجرى الناس على التفكير والترسيم وتحوجهم الى الاقرار بسوء النظم القديمة وضرورة اختطاط الخطط الحديدة . وكما فكر الرئيس ولسون في ايجاد عصبة الامم عقب الحرب الكبرى فكر افلاطون أيضاً عقب حروب اسبارطة وأثينا في ايجاد نظام جديد يضمن للناس السعادة والرخاء

ولم تكن الدولة في عهد افلاطون قطراً بل كانت مدينة لذلك قصر حلمه على المدينة لا على القطر . بل هو يجعل

مدينته صغيرة بحيث يمكن اجتماع جميع سكانها لخطيب واحد أو يمكنهم أن يشتركوا في لعبة واحـدة أو يمكنهم التعارف والمصادقة فلا يكون أحدهم غريباً عن الآخر . ولنذكر ان وسائل الاشتراك في الرأي والتعارف الموجودة بيننا الآن لم تـكن موجودة في زمنه . فنحن نتعارف الى حد كبير بالصحف والتلغراف والتلفون والبريد ثم ان وسائل المواصلات نفسها تقرب البعيد من المسافات وتجعل الاجتماع ممكناً على الرغم من بعـد الشقة بين المجتمعين . ولـكن الحال لم تـكن كذلك في زمن افلاطون ولذلك جعل مدينته صغيرة يبلغ سكانها نحو خمسة آلاف نفس فقط

فجمهورية افلاطون هي قرية متمدينة حولها حقول خاصة بها للزراعة وأهلها في حال وسط بين الترف وبين الفاقة . فلا الترف يكسبهم الرخاوة التي تبلد الجسم والحواس ولا الفاقة تضعف أجسامهم وتكدهم في العمل الشاق . ثم ان الفاقة والترف كليهما يعود بأسوأ العواقب على الفنون . ولا يمكن اغريقيا أن يفكر في مثل اعلى لا يعنى النـاس فيه بالفنون . فجمهوريته خاليـة من الغنى ومن الفقر لان : « الاول يلد الترف والرخاوة والثاني يلد الدناءة والرذيلة وكلاهما يحدث الاستياء »

والناس في الجمهورية سواء فيما يملكون يحصلون على ما يحتاجون اليه حاجة حقيقية ولا ينالون ما لا يحتاجون اليه .

وكانت غاية افلاطون توفير السعادة للناس ولكن هذه السعادة لا تنال بما نملك من عروض الدنيا بل بما في أنفسنا من خصوبة وزكاوة . فسعادته ليست سعادة النهم الذي يلذ له التهام الطعام بل سعادة الراقص أو العازف الذي تلذ له حركاته وما فيه من خفة ورشاقة . فهو لذلك يساوي بين الناس فيما يملكون لانه لا يرى ان الامتلاك يميز شخصاً على آخر من حيث السعادة

والهيئة الاجتماعية في هذه الجمهورية مؤلفة بالطبع من أفراد . ولكن اجتماع هؤلاء الافراد ليس اجتماعاً اعتباطياً اذ هو مؤتلف ائتلاف أعضاء جسم الانسان في شخصه

فكل انسان في هذه الهيئة يخدمها وفق كفايته وقدرته كما يخدم العضو الجسم . وانما يحدث السلام والوفاق بين أعضاء هذه الهيئة اذا اختص كل عضو بوظيفته لا يتعداها الى غيرها . فالعدل في هذه الجمهورية « هو ايجاد مكان لكل انسان وأن يكون كل انسان في مكانه » على نحو ما نرى في الجوقة الموسيقية فان الخلل يصيب الجوقة جميعها اذا خرج أي انسان منها من مكانه ، والوفاق بين نغماتها يزول

اذا قام واحد منها بتبديل ما كلف به من النغم لايجاد اللحن العام للجوقة جميعها

ولكن كيف يمكن افلاطون أن يضمن بقاء كل انسان في صناعته ومكانه لا يتخطاهما الى غيرهما ؟

هنا احتاج افلاطون الى ايجاد نظام الطبقات . فطبقة تختص بدرس الحكمة وتدبير شؤون الجمهورية السياسية والحكومية فهذه هي طبقة الاوصياء . وطبقة تختص بالجندية لحماية المدينة فهذه طبقة المقاتلة . وطبقة تختص بالزراعة والصناعة وهذه هي طبقة العمال

وعناية افلاطون هي بالطبع بالطبقتين الاوليين أما الطبقة الثالثة فلا يبالي بها كثيراً اذ هي رعية محكومة فوقها طبقة الاوصياء يأمرون وينهون ودونها طبقة المقاتلة تنفذ أوامرهم . وليست هذه الطبقات جامدة لا يمكن واحداً من احدى الطبقات الدخول في أخرى . فكل شخص يمكنه أن يرتقي من طبقة الى طبقة اذا ظهرت منه كفاية وهو بعد صغير يمكن تربيته

وقد الغى حقوق امتلاك الاشياء وحقوق امتلاك الزوجات بين طبقة الاوصياء وطبقة المقاتلة ولكنه أبقاهما بين طبقة العمال . وهو انما ألغى الزواج والامتلاك بين هاتين

الطبقتين عناية بهما لانه يريد أن يخضع أفرادهما لنظام خاص حتى ينشأ أفراد كل طبقة على صبغة خاصة

أما الابتداء في تقسيم الطبقات فمن الصعوبة بمكان . فانه ينبني بالطبع على الانتخاب ، يختار الصبي الذكي لكي يكون وصياً فيربى تربية خاصة ثم يختار صبي آخر يميل الى الرياضة البدنية وتبدو عليه دلائل القوة فيختار لطبقة المقاتلة . أما الزراع والصناع فكثيرون

ولننظر في الوسائل التي يتخذها افلاطون لتخليد هذا النظام ودوام بقائه . فهذه الوسائل تتلخص في ثلاثة أشياء وهي : التوليد ثم التربية ثم الرياضة اليومية

فأما في طبقة العمال الذين يزرعون ويصنعون فليس هناك توليد مقصود بينهم فهم يتزوجون وينسلون . أما تربية أولادهم فهي التربية الشائعة بين الصناع والزراع . يتتلمذ الصبي عند صانع أو زارع فيتعلم منه حرفته ويتحرج عليه ويحترف حرفته وليس له رياضة يومية خاصة

أما طبقة المقاتلة فيعيشون في ثكنة خاصة فلا يملكون ولا يتزوجون وانما يتعارفون الى النساء فاذا حملن منهم لم ينتسب الابن الى أب معروف بل ينشأ مقاتلا يتربى تربية لطبقة ولا يعرف ولاء لغير وطنه ولا يبالي بمصلحة لغير

مدينته . ثم يربى الطفل تربية قاسية فاذا كانت به عاهة قتل ونبذ أما اذا وافق جسمه صناعة القتال احتفظ به وعني به ودرب نداريب خاصة لتقوية جسمه وذهنه

وكذلك الحال في طبقة الاوصياء يتلاقح النساء والرجال بدون تعيين امرأة بعينها لرجل بعينه حتى يضيع النسب ولا يعرف أحد والديه . وهذا مع العناية بالانتقاء فأجمل الرجال وأكثرهم حكمة وعقلا يشجع على التناسل حتى يكثر أولاده ويرثوا صفاته في الشجاعة والعقل . وكان افلاطون يرى أن التفوق في خدمة الجمهورية يجب أن يمنح صاحبه حق التلاقح مع عدد من النساء أكبر مما يمنح غيره . وليس من الواضح هل قال افلاطون ذلك على سبيل مكافأة الوصي لحسن بلائه في خدمة الجمهورية أو لانه يريد الاكثار من نسله لان تفوقه في الخدمة دليل تفوقه في العقل

ولم يكن افلاطون يسمح للطبقات بالاختلاط احسي . فلكل طبقة نساؤها ورحالها لا يتعدونها الى غيرها . فكأنه كان يريد أن يجعل كل طبقة سلالة خاصة لها صفات حاصة . وكان كما قلنا اسبرطى المزاج يكره الضعف والمرض فكان يقول بقتل جميع الاطفال المؤوفين وتحديد عدد أطفال طبقة العمال حتى لا يفيضوا على غلات الارض

أما تربية الاوصياء فكانت التربية الاغريقية المعروفة في زمن افلاطون مع التعديلات التي يحتاج اليها نظامه . ولما لم يكن الاوصياء عائلة فان أولادهم يوكلون الى مربين يعهد اليهم ثقافة أجسامهم بالالعاب الجمنازية وثقافة عقولهم بالموسيقى ما داموا صبياناً . ثم يلقن الصبي ضروب المعارف على طريقة اللعب بحيث لا يشعر أنه يكد للتعليم وانما يتعلم وهو يلعب مسروراً فاذا شب وضع له نظام آخر في التعلم . ثم يمتحن الشبان من وقت لآخر فلا يدخل طبقة الاوصياء سوى الذين ثبت بالامتحان انهم أهل لان يتولوا حكومة المدينة . ويعيش الاوصياء فيما يشبه الثكنة ولا يجوز لاحد منهم أن يقتني بيتا أو مخزناً ولا يجوز لهم أن يمتلكوا أي شيء الا تلك الاشياء الضرورية التي لا يستغني عنها انسان . وهم يكافأون مكافأة معتدلة تكفي حاجاتهم بحيث لا يشعرون بضيق الفاقة ولا يجدون أيضاً سبيلا الى الترف . وهم يأكلون معاً ولا يحملون الذهب أو الفضة . والقصد من كل هذا النظام أن يبقى الوصي نزيهاً لا تشغله مشاغله الخاصة عن النظر في شؤون المدينة ولا ينحرف رأيه في حكم لمراعاة مصلحة خاصة . فليس له قريب يحابيه أو ولد يدخر المال له وكذلك أيضاً لا يختلط بالناس ولا يعاشر أحداً من غير

طبقته فتستحيل المعاشرة الى مصاحبة أو مصادقة تحول دون النزاهة

والاوصياء يكونون في شبابهم من طبقة المقاتلة يقضون وقتهم في تثقيف أجسامهم وعقولهم . فاذا بلغوا الخامسة والثلاثين عهدت اليهم الرياسة في بعض أقسام الجيش وجرئوا على اكتساب التجارب . فاذا بلغوا الثلاثين وجازوا الامتحانات الشاقة صاروا أوصياء وعندئذ تقتصر أعمالهم على درس الفلسفة ووضع نظام الحكم

وليست مهمة الاوصياء سن القوانين وانما هي اختراع نظم للحكم أو وضع الدساتير للمدينة لضمان حرية الافراد . فالحرية هي الهم الاول الذي يهتم له افلاطون ويعدها أخطر ما ينبغي العناية به فهو لذلك يوكل حراستها الى الاوصياء الذين يجب عليهم اختراع الانظمة التي تضمن عدم العبث بها . فالناس في مدينة افلاطون يحكمون أنفسهم وانما يضع الاوصياء الدساتير لهم سواء أكان ذلك لطبقة العمال أم لطبقة المقاتلة فهم أشبه بالمشرفين منهم بالحكام . فاذا وجدوا ان الدستور الموضوع لطبقة العمال مثلا لا يفي بحاجاتهم استبدلوا به غيره

وقد يرى القارىء ان افلاطون قد استسلم للخيال في

توهمه الغاء الزواج والامتلاك في طبقتي المقاتلة والاوصياء .
وهذا صحيح الى حد ما ولكن ينبغي ان نتذكر أن الرهبانية المسيحية وخاصة نظام اليسوعيين منها قد سار على نحو من هذا النظام فالراهب لا يملك زوجة ولا شيئاً آخر ومع ذلك نجح هذا النظام . واذا كان الانسان قد استسهل انكار الذات والتضحية بغرائزه الجنسية وغريزة التملك في سبيل الخدمة الدينية فلمَ لا يستسهل ذلك في سبيل خدمة الانسان ؟ واذا كان في الناس جماعات يرصدون حياتهم لخدمة الله ، يحبسون أنفسهم في ادبار لا يخرجون منها مدى حياتهم يقضون أيامهم في الصلاة والتعبد فلم لا يكون بينهم من يفعل ذلك في سبيل درس الحكمة وايجاد النظم للحكومات وضمان الحرية للافراد ؟

فيجب ألا نتوهم ان افلاطون قد استسلم للخيال كل الاستسلام . فهو يريد أن يكل حكم الناس الى الفلاسفة . وهو يرى كما رأى بعده نبي الاسلام ان الولد مجبنة ومبخلة لابيه . فعمد الى سبب ذلك فوجده في الزواج فألغاه حرصاً على أن يبقى الوصي أو المقاتل نزيهاً لا يعمل الا لمصلحة مدينته . وقد ذكرنا الرهبان دليلا على امكان نزول الطبيعة البشرية عن حق التمتع بالزواج والامتلاك ونذكر جيش

الانكشارية عند الاتراك دليلا على أن الرباط العائلي يقلل من شجاعة الناس . فان هذا الجيش كان يؤلف من صبيان النصارى الذين يؤسرون فينشأون وهم لا يعرفون لهم عائلة فكان هذا من أسباب شجاعتهم واستماتتهم في القتال

حلم توماس مور

(وُلد سنة ١٤٧٨ ومات سنة ١٥٣٥)

بعد ان مات الاغريق ماتت الحرية الفكرية في جميع أنحاء العالم الا بصيصاً منها بقي عند العرب يومض ويخبو تبعاً للزمان والمكان . فقد كان الاغريقي جريئاً يجازف في الخيال ولا يبالي بالآلهة أو بالناس . وذلك لان الآلهة والناس كليهما لم يكن لهما ذلك السلطان الذي صار لهما فيما بعد أي بعد ظهور المسيحية والامبراطرة والملوك . فقد كانت الآلهة الاغريقية كثيرة العدد كل منها مختص بعمل فلم تكن له حرمة إله المسيحية أو إله الاسلام أو ما لهما من السيادة الاتوقراطية والعلم بكل شيء واملاء كل شيء على الناس . وكذلك لم يكن لهم ملوك مستبدون يمنعون الناس من التفكير في اشكال الحكومات وسياسة الدول وسن الشرائع

لم يكن شيء من ذلك عند الاغريق فكانت أفكارهم تنطلق حرة تسبح أينما تشاء . وكان فلاسفتهم يكتبون في كل ما يعرض لهم بلا تحرج لا يتورعون من دين ولا يخشون بأس ملك . ثم كانت المسيحية وإلهها قادر على كل

شيء عارف بكل شيء . فخرج الملكوت من يد الانسان الى يد الله ومن هذا العالم الى العالم الآخر . فاذا كان افلاطون قد وجد المجال واسعاً لان يتخيل ويحلم في ايجاد ملكوت أرضي ينال فيه الناس السعادة والهناء فان المسيحية قد ضيقت هذا المجال لانها أوجدت من جنة النعيم في الآخرة بديلاً من مثل هذه الاحلام . ولم تكن هذه الارض في نظر المسيحية سوى دار بلاء وتجربة يعبرها الناس الى جنة النعيم . وهذا أيضاً هو نظر الاسلام

ثم كان ملوك النصارى وخلفاء المسلمين عائقاً آخر يمنع التخيل والبحث في المثل العليا للحكومات والهيئات الاجتماعية. لان بحث هذه الموضوعات دليل السخط على النظم الموجودة التي لا يرضى ملك أو خليفة بانتقادها

ثم كانت النهضة الاوربية فعادت أوربا الى نفسها القديمة وأخذت تعنى بتاريخ الاغريق . فصارت تدرس ثقافتهم وتتمثلها حتى نزعت نزعة اغريقية جديدة فصار علماؤها وفلاسفتها يتنبأون ويتخيلون ويحلمون

وكان من هؤلاء الحالمين توماس مور الانجليزي وكان وزيراً لهنري الثامن فلم يكن حلمه مبنياً على أسس الخيال . فقد خبر الدول وعرف من ممارسته الطويلة للسياسة بعض

حقائق الطبيعة البشرية . فهو لذلك يتخيل ولكنه يبني خياله على أساس من الحقائق

وبطل الحلم رجل برتغالي يدعى هيثلوداي كان كما ينتظر القارىء يعرف الاغريقية وقد اعتاد المجازفات الفكرية من فلاسفة هذه اللغة . ولكنه لم يكن رجل كتب فقط فقد عرف رجلا يدعى فسبوتيوس زار معه امركا الشمالية والجنوبية وجزائر الهند الشرقية وهناك رأى بلاداً تخالف ما ألفه في بلاده من حيث المؤسسات والنظم وتركيب الهيئة الاجتماعية . فهو لذلك يروي ما رآه في هذه الرؤيا لعل فيه فائدة للقارىء

يقول هيثلوداي انه زار جزيرة طولها مائتا ميل قد خضت في وسط المحيط بهيئة الهلال يتقوس حول خليج كبير بحيث يسهل الدفاع عنها من غارة أي عدو . وبالجزيرة ٥٤ مدينة أقربها تبعد عن الاخرى بمقدار ٢٤ ميلا وأبعدها تكون على مسيرة يوم منها وعاصمة الجزيرة بلدة تدعى اموروط ولكل بلدة اختصاص قضائي على ما حولها من الارض الى ما يبعد عنها بعشرين ميلا

والزراعة هي أساس المعيشة في هذه الدولة فليس فيها من يجهل هذه الصناعة فهناك فلاحون يقضون كل حياتهم

في الحقول لهم دساكرهم منبثة في الريف ولكن عند الحصاد يرسل عمال من المدن لمساعدة الفلاحين . وكل دسكرة تحتوي على أربعين رجلا وأربعين امرأة وفي كل عام يعود عشرون من هذا العدد الى المدينة ويستبدل بهم عشرون آخرون يرسلون من المدينة الى الدسكرة كي يتعلموا الفلاحة . والفلاحة متقدمة من وجهيها الاقتصادي والانتاجي . فهم يعرفون كيفية انتاج الدّجاج بطريقة صناعية ويعرفون مقدار الطعام المطلوب لاهل الجزيرة فيزرعون ما يكفي أو ما يفيض عن الكفاية

ومع ان جميع سكان الجزيرة يعرفون الفلاحة وقد مارسوها بعض عمرهم فانهم جميعهم يعرفون صناعة أخرى يزاولونها كالبناء والنجارة والحدادة والحياكة وجميع الصناعات متساوية القيمة فلا تفضل واحدة أخرى . والناس يتبعون آباءهم في الصناعات . فالصناعة تمارسها العائلات لا الافراد واذا مال واحد الى صناعة تخالف ما يزاوله أبوه ذهب الى عائلة أخرى فتتبناه العائلة ويأخذ في تعلم صناعتها . ويمكنه ـ اذا أراد ـ أن يتعلم صناعة أخرى باتباع هذه الطريقة نفسها ثم له أن يختار ما شاء منهما

وينحصر عمل القضاة تقريباً في اجبار الناس على العمل

وليس معنى هذا ان أهل الجزيرة يكدون أنفسهم ليل نهار فان لهم توقيتاً للعمل والراحة فهم ينامون ثماني ساعات ويشتغلون ستاً ويتصرفون بسائر اليوم كما يشاءون وهم يشتغلون هذا العدد القليل من الساعات لان كل انسان مجبر على العمل فليس بينهم أشراف أو أمراء أو شحاذون يعيشون عالة على غيرهم . ولا يعفى من هذا الاجبار سوى الطالب في المدرسة أو القاضي

وبين المدينة ودساكر القرى مقايضة تحدث باحتفال عام كل شهر فيأخذ الفلاحون ما يحتاجون اليه من صناعة أهل المدن ويأخذ أهل المدن ما يحتاجون اليه من غلات الريف . ولا بد أن لهذه المقايضة نظاماً ولكن هيتلوداي لم يذكر هذا النظام

والمدينة مؤلفة من عائلات والصناعة كما قلنا تمارسها العائلة لا الفرد . قال هيتلوداي : « كل مدينة مقسمة الى أربعة أقسام وفي وسط كل قسم سوق فما تحضره العائلات من مصنوعاتها يؤخذ ويصف كل الى نوعه في أمكنة خاصة ثم يذهب الآباء ويأخذون حاجاتهم من هذه الاشياء بدون أن يدفعوا ثمنه أو يضعوا شيئاً بدلا منه على سبيل المقايضة .

وليس هناك ما يدعو الى أن ينكر على أحد طلبه وذلك لوفرة ما هو معروض من هذه الاشياء ولانه لا خوف من ان أحداً يأخذ اكثر من حاجته اذ ليس هناك ما يغريه بذلك لانه متأكد من وجود هذه الاشياء على الدوام »

ثم يقول : « ان خوف الحاجة هو الذي يوجد النهم والطمع في نفوس الحيوان ولكن الى جانب الخوف نجد عند الانسان خصلة أخرى هي الكبرياء حيث يتوهم الانسان أن تفوقه على غيره في الابهة مما يزيد في مجده وعظمته . ولكن ليس أحد يسعه أن يفعل ذلك في الجزيرة »

فتوماس مور لا يحلم بشيوعية النساء كما حلم افلاطون . ولكنه يحلم بشيوعية الاملاك وهو لكي يحقق هذه الشيوعية يلغي النقود . فالناس يأخذون حاجاتهم بدون ثمن

وفي كل عام يجتمع القضاة (وهم الحكام أيضاً) في العاصمة « أمرروط » فينظرون في غلات كل منطقة ويرسلون الى المناطق المحتاجة الى بعض السلع ما يحتاج اليه من فائض المناطق الاخرى

وليس الذهب أو الفضة أو الجواهر قيمة عند أهل الجزيرة ولذلك فالرؤيا كما يراها توماس مور لا تقاس الى رؤيا يوحنا من حيث الزينة واللألاء مع أن الاولى يقصد تحقيقها

في هذا العالم والثانية لا تتحقق الا في السماء . وغريب أن يدعو رجل الدنيا الى ملكوت خلو من الزينة والجواهر في حين يدعو اليها رجل الدين في ملكوت السموات

أما اموروط عاصمة الجزيرة فتقع على تل وحولها سور والمنازل مشيدة على نسق واحد حتى كأن الشارع بناء واحد . وسعة الشارع عشرون قدماً ووراء كل منزل حديقة يعنى السكان بها ويتعهدونها حتى تبقى في نضارة دائمة . وفي كل شارع قاعات خاصة مبنية على مسافات متساوية يقيم فيها القضاة (الحكام) وكل منهم ينظر في شؤون ثلاثين عائلة نصفها في جانب من الشارع والنصف الآخر في الجانب الآخر

وفي هذه القاعات يتناول جميع السكان غذاءهم . ويقوم بطهي الطعام نساء الثلاثين العائلة بالتناوب . والى جانب هذه القاعة معبد ومكان آخر للعب الاطفال الذين تأتي أمهاتهم للطبخ في نوبتهن

ولننظر الآن في حكومة هذه الجزيرة . فالعائلة هي أساس الهيئة الاجتماعية وكل ٣٠ عائلة تختار كل عام قاضياً ولكل عشرة قضاة رئيس . وجميع قضاة الجزيرة الذين يبلغون ٢٠٠ يختارون أميراً وتكون امارته مدى حياته ما لم

يتهم بمحاولة استعباد الاهالي . ولكي يمنع الامير أو غيره من محاولة قلب نظام الحكومة يعرض كل مشروع على جميع السكان . فان القاضي يعرضه على العائلات الثلاثين الداخلين في اختصاصه ثم يتناقشون فيه ويرفع هو قرارهم الى مجلس الشيوخ

والعائلة كما رأيت ليست وحدة بيتية فقط بل هي ايضاً وحدة صناعية فاذا صارت قاعدة للانتخاب ضمن النظام الديمقراطي للحكومة وضمن بذلك بقاؤها

ولكن في هذا الحلم أشياء جديرة بالانتقاد لم يستطع توماس مور أن يخرج فيها عن حكم بيئته . فلم يدرك مثلا أن تكاثر السكان مع العناية بصحة الاهالي وتوافر الغذاء لهم سيؤدي حتما الى أن يفيض السكان على طعامهم والى ايجاد الفاقة بين جميع السكان . وهذه غلطة يعذر فيها توماس مور فان الوفيات في عهده كانت كثيرة تكاد تعدل المواليد فلم يكن يخطر ببال أحد أن يتخيل مثلا أعلى للهيئة الاجتماعية يحدد فيه عدد السكان . وان كان ذكاء افلاطون قد جعله يحسب لهذا الاحتمال ويوصي بقتل الفائضين من الاولاد

ويظهر من مسائل أخرى عالجها توماس مور ان مستوى المثل الاعلى عنده لم يكن عاليا الى الدرجة التي تمكننا أن

تتخيلها . ويظهر هذا خاصة في معالجته مسألة انتقال الاهالي من مكان لآخر ومسألة الحرب

فني مسألة الانتقال يحتم على كل فرد أن يحصل على جواز من أمير الجزيرة . فاذا غاب أكثر من يوم يجب عليه أن يمارس صناعته في المكان الذي انتقل اليه . واذا وجد انسان يجول في مكان وليس معه جواز فانه يعاقب فاذا عاود هذا الفعل عومل معاملة العبيد . ويبدو للقارىء من معالجة توماس مور لهذه المسألة انه لم يعن أقل عناية بالتفكير الجدي فيها أو انه أراد أن يحصل على عبيد لجزيرته فانه وجد أن بين أعمال الناس التي يحتاجون اليها ما هو قذر في طبيعته لا يرضى بمزاولته أحد باختياره مثل ذبح البهائم وتنظيف الطرق وما اليها فخص العبيد بالقيام بهذه الاعمال واوجد الرق باوهى الاسباب في نظام الهيئة الاجتماعية حتى يعيش أفرادها منزهين عن كل ما في مزاولاته قذارة . ولكنه نسي شيئاً آخر وهو أن معاشرة العبيد تؤثر في الاسياد . واذا الف الاستبداد من السيد للعبد صار أيضاً مألوفاً من الامير للسيد

أما الحرب فهو يحيزها على شروط منها الدفاع عن الارض واضطهاد التجار الاجانب ومنع الامم من الهجرة الى بلاد يمكن زراعة أرضها وليس من يزرعها من أهلها . ومن هذا

الشروط يرى القارىء أن توماس مور كان يكتب مستضيئاً بالحوادث التي جرت في عصره . فقد كانت أميركا حديثة العهد بالاكتشاف والهجرة اليها متصلة وكانت سفن التجارة يقبض عليها في الموانى ويسلب ما فيها من السلع . ولكنه يؤلف الجيش بطريقة « يوجنية » فهو يصطفي أسوأ الرجال لتجنيدهم في الحرب حتى اذا قتلوا استفادت الامة بفقدهم على نحو ما يقلع الزارع الاعشاب الضارة من حقله

ولننظر الآن في شروط الزواج والدين . فاهل هذه الجزيرة يسمحون للعروسين بان يرى كل منهما الآخر وهو عريان قبل الزواج . وللطلاق علتان الاولى الزنا . والثانية التواء أحد الزوجين على الآخر بحيث لا يمكن تقويمه . ومن زنى يحكم عليه بالرق ولا يمكن أن يتزوج رجلا كان أم امرأة

هذا هو حلم توماس مور وليس يرى فيه القارىء فكرة مبتكرة أو خيالاً بعيداً ولكن وراء مقترحاته كلها فكرة واحدة وهي أن يسيطر الانسان على الممتلكات ويتمتع بها لا أن يكون هو نفسه عبداً لها يقضي حياته في جمعها واختزانها ويجهد جهده في المحافظة عليها وحراستها ورعايتها يحسب بذلك انه مالكها والحقيقة انها هي التي تملكه وتسترقه . وهو لذلك يلغي النقود لانها مسبلة ادخار

الممتلكات . ويحتم على الجميع أن يشتغلوا في الزراعة ولو بعض وقتهم حتى يشعر كل انسان انه منتج . ثم يحتم على كل انسان أن يصنع شيئاً ان لم يزرع . ثم يعرض جميع السلع على الناس يأخذون منها ما يشاءون لا يخشى أن أحداً سيحتجن اليه ويدخر اكثر مما هو في حاجة اليه

أما أوقات الفراغ وهي كثيرة فتقضى في طلب العلوم والآداب يحاول كل انسان أن يرقي ذهنه بما يقرؤه أو بما يناقش فيه اخوانه

اندريا وحلمه

وُلد سنة ١٥٨٦ ومات سنة ١٦٥٤

يوحنا فالنتين اندريا ألماني ومسيحي ايضاً. وحلمه يراد به تحقيق المدنية المسيحية كما يتوهمها رجل مؤمن بهذه الديانة. ولكنه مثل سائر رجال الدين يفيق كثيراً من حلمه فتغلب عليه لهجة الوعظ الديني فما يزال يعظ ويعظ حتى يسأم القارىء

وهو يبدأ حلمه بأن يروي للقارىء رحلة له في البحر حيث تتحطم سفينته على صخور جزيرة هي مسرح هذا الحلم فقد كان بهذه الجزيرة مدينة « كرستيانوبوليس » أو المدينة المسيحية . فاذا أراد أن يدخل هذه المدينة امتحنه اهلها أولا في الفضائل والاخلاق والثقافة . ولما لم يروا فيه شيئا مناقضاً أذنوا له بالدخول

واليك الآن وصف هذه المدينة : « كانت في هيئة مربع طول جانبه ٧٠٠ قدم وهي محصنة بأربعة ابراج وسور . . . فهي لذلك تطل على الأركان الاربعة للعالم . والبيوت مبنية على صفين . ولكنك اذا حسبت الحكومة والمخازن فهي أربعة صفوف . وليس فيها سوى شارع واحد وسوق واحدة ولكنها من الطراز الاول » وفي وسط

المدينة معبد مستدير قطره مائة قدم . وفي جميع البيوت ثلاثة طوابق ولها كلها « بلكونات » متصلة . ونجد على وجه العموم : « ان البيوت يماثل بعضها بعضاً فليس هناك سرف أو قذر . والهواء النقي يجوس خلال البيوت كلها . وفي هذه المدينة يعيش اربعمائة من السكان في هدوء الايمان الديني والسلام » أما سائر الجزيرة فانها خاصة بالزراعة والمصانع

و « المدينة المسيحية » من حيث الصناعة منقسمة الى ثلاثة أقسام : واحد للصناعات الخفيفة التي لا تحتاج الى نار وآخر للصناعات التي لا تحتاج الى وقود وتبقى فيها النيران وآخر ايضاً لتربية الحيوان والاعمال الريفية . والغرض من هذه القسمة ألا تؤذي هذه الصناعات الناس الساكنين بجوارها اذا كانت متفرقة في أنحاء المدينة بلا ضابط . والعمال الذين يشتغلون في هذه المصانع لا يساقون اليها سوق الانعام بل هم قد تعلموا قبلا وحصلوا على « معرفة صحيحة المسائل العلمية » ونظرية صاحب الحلم في ضرورة هذه التربية العلمية للصانع هي : « انك اذا لم تحال المادة بالتجربه واذا لم تستعض عن نقص معلوماتك بتحسين آلاتك فلا فائدة منك »

وهذه لمحة عجيبة من أندريا في رؤياه اذ يقول بفائدة

العلم للصناعة وبامكان تعليم الصانع وكلاهما غرض لم يتحقق في جميع الاقطار المتمدينة للآن بل من الناس من لا يؤمن بهما. واليك الآن وصفه للصناعة: « ان عملهم او « استعمال أيديهم » — كما يقولون بهم هناك يجري على نمط خاص وجميع ما يصنع يحمل الى مخزن عمومي . ويأتي الصانع فيأخذ من هذا المخزن كل ما يحتاج اليه لعمله في الاسبوع القادم . وذلك لان المدينة في الحقيقة مصنع واحد متنوع الصناعات . . . واذا كان بالمخزن كمية مدخرة كبيرة من المصنوعات فان الصناع يؤذن لهم بالانطلاق من قيود العمل واستعمال أذهانهم فيما يشاءون . ولا يحمل النقود أحد من الناس وليس للنقود أية فائدة عندهم ومع ذلك فللجمهورية خزانتها . والسكان من هذا الاعتبار لهم ميزة المساواة ليس أحد منهم اوفر مالا من غيره . وانما يمتازون بقوة أذهانهم ويتفاضلون بأخلاقهم وصلاحهم . وعدد الساعات التي يشتغلون فيها قليلة ومع ذلك فهم يتممون شيئا كثيراً من الاعمال لانه من العادة على ... أن ... الراحة أكثر مما يؤذن له »

وهناك واجبات ... يؤديها السكان الى جانب صناعاتهم كالحفر والحصاد وتعبيد الطرق والبناء وصرف أقذار المدينة الى مجاريها

أما التجارة الخارجيــة فليست في يد أفراد يشتغلون لحسابهم بل هي في يد هيئة تعينها المدينة . وليس الغرض من هذه التجارة زيادة الثروة والربح بل مقايضة سائر الاقطار على ما عندهم من السلع التي لا تصنع في « المدينة المسيحية »

وأساس هذا النظام عند اندريا هو العائلة المسيحية . فكل شاب يبلغ الرابعة والعشرين وكل فتاة تبلغ الثمانية عشرة يتزوجان ويؤلفان هما واولادهما عائلة جديدة . وليس هناك ما يتكلفه الزوجان حتى أثاث البيت الجديد تقدمه الحكومة بلا ثمن . وهذا الاثاث بسيط يمكن الزوجة أن تنظفه بأقل عناء ولذلك ليس في « المدينة المسيحية » خدم للبيوت . فالنساء متعلمات والزوج يساعد زوجته في عمل البيت ما عدا الخياطة والغسل . ثم هناك مطبخ عمومي يزود الزوجة بما تحتاج اليه من الطعام اذا لم تكن قد طبخت لنفسها

أما الاطفال فيبقون في رعاية الام الى السادسة من عمرهم وبعد ذلك يدخلون المدارس فيبقون في عنايتها الى سن الشباب وفي هذه المدارس افضل المعلمين . ويمكن الآباء أن يروا أبناءهم كلما شاءوا . وفي غير أوقات الدراسة يعمل التلاميذ أعمالا يدوية ويتمرنون على الفنون والعلوم

كل يختار ما يميل اليه طبعه . أما أوقات الفراغ فتقضى في رياضة الجسم . وفي مدارس « المدينة المسيحية » شيئان جديران باعتبارنا . أولهما أن للمدرسة دستوراً فهي أشبه شيء بجمهورية صغيرة . والثاني أن المعلمين ينتقون من خيرة السكان حتى ان أعلى الوظائف في الدولة ليست مقفلة دونهم فهم ليسوا في وظيفة التعليم أنقص كفايتهم في تأدية الوظائف الاخرى . واليك الآن ما يقوله عن تعليم التاريخ الطبيعي الذي ابتدأت مدارس مصر الثانوية أخيراً فقط في تعليمه :

« يرى التاريخ الطبيعي هنا مرسوماً بالتفصيل على الجدران بأعظم مقدار من المهارة . فهيئة السماء ومناظر الارض في مناطق مختلفة وشعوب الانسان المختلفة وأمثلة الحيوان وهيئة الاحياء وصنوف الاحجار والجواهر كلها مرسومة ومسماة يتعلم منها الطلبة طبيعتها واوصافها . . . أوليس من الحق أن معرفة أشياء هذه الارض أسهل في الايضاح اذا كانت هناك أمثلة توضح الى جانب دليل يساعد الذاكرة ، وذلك لان العلم يجوز الى الذهن عن سبيل العين بأيسر مما يجوز اليه عن سبيل الاذن »

وقد قلنا ان المؤلف ألماني فهو لذلك لا يترك صغيرة ولا كبيرة في هذه المدارس حتى يحصيها ، يصف معامل

الرياضة ومعامل الطبيعة والتشريح والصيدلة بدقة كأنه يهيء ترسيما لمشروع سيتحقق . وهو على حبه الالماني للعلوم لا يهمل أمر الفنون فهو يقول : « امام معمل الصيدلة دكان وسيعة للفن التصويري وهو فن يلذ لاهل المدينة العناية به . لان المدينة فضلا عن أنها مزينة بصور ورسوم تمثل أشكال الارض المختلفة تستعمل الرسوم في هذه الدكان لتعليم الشباب وتسهيل هذا التعليم لهم . . . ثم ان صور العظماء وتماثيلهم ترى في كل مكان وفيها كلها ما يبعث في الشباب عاطفة تقليد هؤلاء العظماء في فضائلهم . . . »

ومعبد المدينة هو بالطبع أهم بناياتها يحوي من بدائع الفن ما لا يحويه غيره . ولكن أندريا كان كما قلنا رجل دين وقد زار جنيف ووقع تحت تأثير كالفن . فهو لذلك يجعل العبادة في المعبد اجبارية . والاجتماعات العمومية تعقد في هذا المعبد كما أن المهازل (القوميديات) الدينية تمثل فيها

والآن وقد ذكرنا شيئاً عن الصناعة والتعليم والعائلة فلنقل شيئاً عن الحكومة . ففي المدينة مجلس مؤلف من ٢٤ عضواً . والهيئة التنفيذية لهذا المجلس مؤلفة من ثلاثة أشخاص هم الوزير والقاضي ومدير التعليم . وأولهم يمثل ضمير الامة والثاني الفهم والثالث الحقيقة . واليك ما يقول الآن عن

عقاب المجرمين : «ان قضاة «المدينة المسيحية» يتبعون هذه العادة وهو أنهم يعاقبون بأقسى العقوبات تلك الجرائم التي تقع من انسان نحو الله . ثم يعاقبون بأقل قسوة تلك الجرائم التي تقع من أحد نحو الناس . وأخف ما يعاقب عليه أحد هو تلك الجرائم التي تقع بالاملاك . وأهل المدينة يكرهون اراقة الدماء وهم لذلك لا يستبيحون لانفسهم عقوبة الاعدام . . . لان كل انسان يمكنه أن يقتل ولكن لا يقدر على الاصلاح الا خير الناس »

أضغاث أحلام

اللورد بيكون (وُلد سنة ١٥٦١ومات سنة ١٦٢٦)
وتوماسو كامبانيلا (وُلد سنة ١٥٦٨ ومات سنة ١٦٢٦)

بيكون وكامبانيلا كلاهما مشهور بحلمه وأولهما انجليزي وثانيهما ايطالي ولكنك اذا تفحصت أحلامهما عن المثل الاعلى للهيئة الاجتماعية ألفيت هذه الاحلام أضغاثاً مجموعة من تلك الرؤى الرائعة التي ألهمها مور وافلاطون من قبلهما مع زيادات طفيفة تدلنا على روح الزمن الذي وضع فيه هذان المؤلفان كتابيهما

فكامبانيلا يحلم بما يسميه « مدينة الشمس » وهي وراء خط الاستواء . وهي لا تختلف عن جمهورية افلاطون من حيث شيوعية النساء وشيوعية الاملاك . وانما نجد في كامبانيلا بعض عبارات تنبيء بالقرنين الثامن عشر والتاسع عشر . فهو يقول مثلا ان عند سكان مدينة الشمس « زوارق تسير على الماء لا بقوة الريح ولا بقوة المجاذيف وانما باختراع عجيب » ثم ان احد سكان المدينة يحدثه فيقول آه . لو أنك تسمع ما يقوله المنجمون عندنا عن الازمنة القادمة فسيكون في القرن الواحد منها من التاريخ أكثر مما

في أربعة آلاف سنة ماضية . أجل ستكون فيها مخترعات الطباعة العجيبة والمدافع والمغناطيس . . . » ولما كانت المخترعات كثيرة في « مدينة الشمس » وسائرة في طريق النجاح فان أهل المدينة ليسوا في حاجة الى استعمال الرقيق . ثم « هم أغنياء لا يحتاجون الى شيء . وفقراء لانهم لا يملكون شيئاً . وعلى ذلك فهم ليسوا عبيداً للظروف وانما هم أنفسهم يستخدمون هذه الظروف »

ففي هذا الكلام ايماء الى المستقبل الذي كان يحس به كامبانيلا . فقد بدأ ضمير الانسان يستيقظ في زمنه ويتساءل: هل ما أقرته الآلهة القديمة من الرق جدير بان يقره الانسان الحديد ؟ وهل لا تقوم المخترعات يوماً ما بعمل الانسان بحيث تزول عنه لعنة آدم أو توشك ؟ ثم يجيب كامبانيلا بالايجاب ويلغى الرق ويقصر العمل الذي يحتاج اليه الناس الى أربع ساعات فقط وذلك لانهم كلهم يشتغلون ولان المخترعات توفر لهم وقتهم

وأحلامنا على وجه العموم تتبع لمزاجنا ومألوفنا . وعلى ذلك نقول انه لما كان مور وأندريا متزوجين لكل منهما عائلة كانت العائلة أساساً من أسس الهيئة الاجتماعية التي تخيلها كل منهما . ثم لما كان افلاطون وكامبانيلا أعزبين كانت

شيوعية النساء أحد أركان الهيئة الاجتماعية التي رآها كل مهما في رؤياه . فالانسان يتخيل وفق طبعه ومألوفه . ولكن يجب أن نقول ان افلاطون نفسه مع انه كان أعزب لم يكن يؤمن كل الايمان بشيوعية النساء . وانما هو قصر هذه الشيوعية على الطبقتين السائدتين . أما طبقة المزارعين والصناع وهم بالطبع جمهور المدينة أو الامة فانه لم يقل بشيوعية النساء بينهم مما يدل على انه كان يدرك أن الزواج الذي يؤسس العائلة ضرورة لكثرة الامة . وهو في حرمانه رجال طبقة الاوصياء وطبقة المقاتلة من الزواج وتأسيس العائلة انما ينقاد الى تلك الفكرة التي تقول باستحالة خدمة غرضين . وهي الفكرة التي أوجدت الرهبان وهي التي تجعل رجل الفن يمتنع أحيانًا كثيرة لمصلحة فنه عن الزواج . فكما ان الراهب المسيحي لا يتزوج ارصاداً لنفسه على خدمة الدين ووقفاً لمواهبه على العبادة كذلك كان يرغب افلاطون في أن يرى الوصي أعزب يقف كل جهوده على مصلحة الامة لا على زوجته وأولاده . فالقاعدة عند افلاطون هي الزواج أما الاستثناء فهو الاباحية المقيدة

* * *

ولننظر الآن في بيكون وأضغاث أحلامه . فقد رأينا

ان كامبانيلا لم يأت بطائل وكذلك الحال في بيكون بل خيال بيكون مقصوص الجناح اذا قيس الى خيال كامبانيلا. ثم في جناحه ريش مستعار اكثر مما في جناح كامبانيلا. وكثير من هذا الريش المستعار قد رأيناه على أصله في خيال أندريا وفي رؤيا افلاطون. فلا حاجة الى التكرار

وأهم ما في رؤيا بيكون هو « بيت سليمان » وهو مؤسس أشبه شيء بالسكايات الغاية منه « معرفة علة الحركة في الاشياء وأسرارها وتوسيع سلطة الانسان حتى لا يعجز عن عمل أي شيء ممكن » وفي هذا المؤسس معامل أو مختبرات محفورة في جوانب التلال ومراصد يبلغ ارتفاع أبراجها نصف ميل. وفيها برك من الماء الملح والماء العذب يبدو من أقوال بيكون انه يريد منها أن تكون مختبراً لتربية الاسماك وسائر الاحياء المائية. ثم فيها آلات تدير الاشياء. ثم هناك أيضا مصح لتجربة الادوية وقاعات كبيرة لعرض التجارب الطبيعية ومراكز زراعية كبيرة لعمل التجارب في التطعيم. ثم المعامل الصيدلية والصناعية ومعامل أخرى بعمل الاختبارات في الصوت والضوء والطيوب والطعوم. فهذه كلها يقول بيكون انها في « بيت سليمان » ويجمعها ركاماً مشوشة بلا تنسيق أشبه شيء بالمذكرات منها بالرؤيا المرتبة.

ومن هذه الكلية أو « بيت سليمان » يخرج اثنا عشر عالماً الى البلاد الاجنبية للسياحة وجلب الكتب الغربية وكتابة التقارير عن المخترعات والاشياء العجيبة التي يرونها في سياحاتهم . وهذه الكلية هي أهم شيء في مدينة بيكون التي يسميها « اتلنتيس الجديدة » وسائر ما في هذه المدينة لا يختلف عما رأيناه في افلاطون وأندريا

وهذه الكلية كما وصفها بيكون هي الحلم الذي لا يزال يحلم به للآن علماء الكليات وقد أوشك أن يتحقق بعضه مثلا في « مؤسس روكفيلر » في الولايات المتحدة . وهو يدلنا على هموم بيكون وانها كانت هموم رجل عالم جدير بان يكون أحد أركان النهضة الاوربية . فهو القائل بالعقل بدل النقل يريد أن يبني الحقائق على التجربة والاختبار وأن يعبىء قوى الانسان الى ترقية العلوم والمعارف ويحشد لهذه الترقية جميع الكفايات التي في الامة . ثم هو لا يترك فرعا من فروع المعارف الانسانية صناعة كان أو زراعة أو طباً أو غير ذلك الا ويهيىء له وسائل التجربة والاختبار الذي عليه تنبني أصول هذا العلم أو الفن. ومع ما في رؤياه من التشوش والخلط فانه قد رسم لنا ترسيما يوشك أن يكون كاملا عن كلية يقصد منها تقديم العلوم وترقية المعارف

عصر الصناعة واحلامه

يتسم القرنان الثامن عشر والتاسع عشر بظهور المخترعات الصناعية ووفرتها . ولو قيست هـذه المخترعات في هـذه المدة القصيرة الى مخترعات الانسان الآلية منذ خمسين الف سنة لأربت عليها ان لم يكن في الفائدة ففي تعدد اصنافها وتنوع أعمالها . فهذه الكثرة وحدها كانت من الدواعي القوية الى ان يفكر الانسان في مستقبل الآلات وان يرجو منها ان تقوم مقام العامل نفسه وتوفر عليه راحته . ثم كان من ظهور الآلات واقبال الناس على الصناعة ان انتقلت الثروات الضخمة من البيوت القديمة الى أفراد محدثين فحدث من هذا الانتقال تزعزع في الهيئة الاجتماعية لعدم انطباق الجديد على القديم وانتهى الحال الى الثورة الفرنسية . وليست الثورات في الحقيقة الا محاولة عنيفة لاصلاح القديم الذي يتنافر مع الجديد فان لم ينجح الاصلاح فان التأثر يعمد الى الهدم . وكل هذه الاحوال تربة صالحة لان يغرس فيها رجل المثل الأعلى ما يتوهمه من هيئة اجتماعية وما يحلم به من اصلاح

وقد سبق ان قلنا ان الانسان إزاء الوسط الذي يعيش فيه ويشعر بفساده او ثقل انظمته احد ثلاثة . فهو اما أن يفر منه ويتحول عنه الى وسط آخر يوافقه . واما ان يدافعه ويحتمي منه . واما ان يهاجمه متعمداً ابداله

ونحن اذا نظرنا الى رجال القرن الثامن عشر الفيناهم من الصنف الاول يبغون الهروب . فقد تعاظمهم الفساد فآثروا تركه على معالجته . ففيهم جميعهم روح روبنسون كروزو يرضى بحال البداوة الساذجة في جزيرة قصية ويعيش منفرداً له كفافه من العيش يؤثر هذه الحالة على حضارة المدن وما فيها من ترف وتكلف وعجيج . فجان جاك روسو مثلا يؤلف الكتب عن فساد الحضارة وما في انتشار العلوم والآداب من الاذى للناس ويصيح بالناس ان عودوا الى الطبيعة . ثم هناك شاتوبريان لا يرى الجمال والجلال الا في ذلك « المتوحش النبيل » الذي يعيش على الفطرة في بادية اميركا ثم يفحص نفسه فاذا به هو نفسه ذلك « المتوحش النبيل » الذي يهوى الهروب من الحضارة . ثم هناك برناردين سان بيير قد اشمأزت نفسه من الحضارة وتكاليفها فلم يجد مسرحاً يمثل عليه خياله عن السعادة الا في أقاصي جنوب افريقيا حيث الطبيعة لم تزل بكراً حتى سعادة الحب ووساوس

الغرام تدب في الجسم مفاجئة فلا يدريها الشاب وتخطئها الفتاة لانهما من بداوة العيش بحيث يغمرهما الجهل والسذاجة وكلاهما اساس السعادة في رأي هذا الفار من مكافحة الحضارة .

والنزوع الى الطبيعة وسذاجتها والى البداوة وحريتها هو ردة في نفس كل انسان . ونحن اكثر ما نكون شعوراً بقوة هذه الردة عندما تكثر علينا تكاليف الحضارة . ولو كان كل رجال المثل العليا من طينة هؤلاء « الرهبان » الذين يفرون من مواجهة الحقائق بتوهم فردوس لا يمكن تحقيقه لما تعنينا في سرد احلامهم. فانما نحن نعنى هنا باولئك المكافحين المهاجمين الذين يرسمون لنا بناء حضارة جديدة كاملة او شبه كاملة غير تلك التي يعيشون فيها

واذا عددت « طوبيات » الفلاسفة أو احلامهم التي تخيلوا فيها من النظم ما هو أرقى مما لديهم لكان ثلثا هذه « الطوبيات » ينسبان الى القرن التاسع عشر . والثلث الباقي الى سائر القرون . وانما ذلك لكثرة مخترعات هذا القرن وانتشار الصناعة فيه واختلال التوازن في هيئته الاجتماعية اختلالاً فادحاً واضحاً وظهور طبقة من الناس تستبد بالعمال

وتستأثر بالربح العظيم ولا ترضخ لهم الا باليسير الذي يقوم بكفافهم او باقل منه

فقد كانت الصناعة قبل ظهور الآلات في ايدي صناع يشتغلون بايديهم. فالحذاء يشتري آلاته باقل الاثمان وينتحي ناحية من المدينة يفتح فيها دكانا فيصنع الاحذية ويبيعها بنفسه. يفعل ذلك كله وهو راض عن نفسه وعن حكومته وعن الحضارة التي هيأت له هذا النظام. ولكن ظهرت بعد ذلك الآلات فصارت تصنع آلاف الاحذية في وقت قصير وغمرت السوق ببضائعها حتى لا تكاد تتسع لما يصنعه ذلك الحذاء البسيط. فهي تدفعه الى ان يكون عاملا في ذلك المصنع الكبير الذي يصنع اشياءه بالآلاف. وقل مثل ذلك في سائر الصناعات. فان الصناع الذين يصنعون بضائعهم بايديهم قد استحالوا عمالا لا رأس مال لهم يطردهم المعمل عند تكدس بضائعه وينزل أجورهم الى أحط قيمة تضمنها مزاحمة العمال بعضهم لبعض. وينتج عن ذلك كله ان يبقى العمال في فقر مدقع وان يثرى اصحاب المعامل اثراء فاحشا وان يدعو هذا التفاوت بين الحظين الى تذمر العمال والى ظهور الحركات الاشتراكية. وليس غريباً أن تظهر لفظة (Socialism الاشتراكية) حوالي سنة ١٨٢٥. وليس النظام الاشتراكي

سوى « طوبى » يتمنى العمال تحقيقها في مقتبل الايام . فهي الآن امنيتهم وحلمهم ولكن يبدو من تصفح الاحوال السياسية في الامم الغربية انهم صائرون الى تحقيق هذه الطوبى او ما يشبهها . ومعظم الطوبويين او رجال المثل العليا في القرن التاسع عشر هم او اكثرهم لهذا السبب من الاشتراكيين . فهؤلاء الاشتراكيون يرون تقدم الآلات والمقادير العظيمة التي تنتجها من البضائع فيتساءلون : لم لا تملك الامة هذه الآلات وتصنع بها ما يكفي الناس من اللباس ، ولم لا تستعمل هذه الآلات في الزراعة فيتوافر للفلاح وقته ليقضي منه ما يشاء في تربية نفسه والترفيه عنها ؟ ولم يربح المموّلون كل هذه الاموال التي يغلها عليهم الحديد والنار او ليس من العدل ان تكون المخترعات شائعة يستغلها كل أفراد الامة في شخص الحكومة ؟

واول رؤيا نصفها من رؤى القرن التاسع هي رؤيا شارل فورييه (وُلد سنة ١٧٧٢ وهلك سنة ١٨٣٧) وهو من زعماء الاشتراكية في فرنسا . فقد رأى فورييه فيما يرى اليقظان ان جماعة يبلغ عددها نحو ١٦٠٠ نفس تعيش معا يقوم اعضاؤها بجميع حاجاتهم . والامة التي منها هذه الجماعة مقسمة جماعات على هذا النمط كل منها تتكفل بحاجاتها دون

الالتجاء الى جماعة اخرى . وللانسان في رأي فورييه شخصية مثلثة « فهو صناعي يبغي المؤالفة بينه وبين الوسط الذي يعيش فيه بالصناعة . وهو اجتماعي يبغي المؤالفة بينه وبين الجماعة التي ينتسب اليها . وهو ذهني يحتاج الى كشف النواميس التي تعمل انتظام هذا الكون » وهو لهذه الشخصية المثلثة يضع جماعته المكونة من ١٦٠٠ نفس في بقعة مختلفة المناظر والنواحي فيها الجبل والنهر والغابة والسهل والمدينة . وصناعة الاهالي الاصلية هي الزراعة ولكن الاهالي مع ذلك يمارسون جميع الفنون والصناعات الاخرى اذ أن كل جماعة مستقلة عن الاخرى

وفي وسط البقعة التي تقيم فيها الجماعة بناء « هو قصر كامل يقوم بحاجات المجتمعين له ثلاثة أجنحة أحدها صناعي وآخر اجتماعي وآخر ذهني . ففي الاول المصانع وقاعاتها . وفي الاخير المكتبة والمجموعات العلمية والمتحفات وقاعات رجال الفن ونحو ذلك . اما الجناح الاجتماعي ففي الوسط وهو يحتوي قاعات الطعام والاستقبال والسمر . وفي أقصى القصر معبد المؤالفة الحسية وهو خاص بالرقص والغناء والموسيقى والشعر والرسم ونحو ذلك . وفي أقصى القصر من الناحية الاخرى معبد الاتحاد الذي يحتفل فيه بالشعائر اللائقة باتحاد

الانسان بالكون . وهنا برج ومرصد به تلغراف للاتصال بسائر الجماعات »

وهذا البناء هو بالطبع المدينة كلها يعيش أهلها معا لهم مطبخ واحد ومنذ الصغر يتعلم الاطفال كيفية الطبخ وهم يأكلون معا وان كان من الممكن ان يتناول كل انسان طعامه بمفرده على عزلة . ولكل واحد من الجماعة مقدار معلوم من الطعام والغذاء والمسكن والملهى يتساوى فيها مع سائر أفراد الجماعة بغض النظر عن العمل الذي يزاوله . ثم فوق ذلك له أن يحصل على امتيازات أخرى يخوله اياها ما له من الاسهم في شركة هذه الجماعة . فهنا تمييز بين العامل المجد والعامل الخامل وهنا ايضا ترخيص بالامتلاك الفردي الى درجة ما . فالجماعة مساهمون يعيشون عيشة شيوعية يتساوون فيها كلهم ثم يمتاز منهم الحاصل على اسهم اكثر من غيره . ولكن هـذا الامتياز قليل الاثر لان الربح في النهاية بعد الانفاق على هذه العيشة يكون صغيراً لا يؤبه به . فهذا كما يرى القارىء شبه توفيق بين مبدأي الشيوعية والانفرادية

والصناعات تمارس على نظام واسع اقتصاداً في النفقة كل عامل يختص بجزء من العمل حتى ينجز الكثير منه في القليل من الوقت . والجماعة تتجر مجتمعة كأنها هيئة واحدة

فتبيع للجماعات الاخرى ما هي في غنى عنه وتوزع الارباح على اعضائها بنسبة ما لهم من الاسهم فيها على نحو ما تفعل الجمعيات التعاونية الآن

والمرأة في هذا النظام حرة تشتغل كما يشتغل الرجال . ويرى فورييه ان الزواج لا يوافق هذه الحرية · ففي البناء مكان لتربية الاطفال الرضع . وللجماعة جيش لا يعبأ للحرب وانما يسير لمكافحة الطبيعة لشق الانهار وزرع الغابات وبناء الجسور وتجفيف الارض النازة ونحو ذلك ويرى فورييه في ذلك مصرفاً لنشاط الشباب يقوم مقام الحروب

* * *

يختلف روبرت اوين (١٧٧١ ـ ١٨٥٨) عن بعض من ذكرناهم من حيث انه لم يستسلم للخيال كل الاستسلام وانه قصد الى ايجاد هيئة اجتماعية تتيسر اقامتها . فقد عاش هو نفسه بين عمال وأدار المصانع وعرف تلك العلاقة بين الآلة والانسان وامكان جعلها وسيلة للاصلاح او للافساد ولم يكتف بالكتابة والشرح بل عمد الى العمل فاسس جملة مصانع أجراها وفق آرائه بالاشتراك مع بنثام المشترع الشهير . وانتهت تجاربه العملية هذه بالاخفاق

ولما كان موضوع كتابنا هذا أحلام الفلاسفة فاننا

لا نرى من الرأي أن ندخل في شرح أعمال اوين وانما ذكرناه عرضاً لانه مشار اليه في الاشتراكية وكانت له همم بارزة في جميع حركات العمال وأثر عظيم في احلام من جاءوا بعده

* * *

وانتقل الآن الى خيالي مشهور هو جيمس بكنجهام (١٧٨٦ — ١٨٥٥) عاش اكثر أيامه في الشرق وكان يحرر عدة صحف انجليزية في الهند وكان مع ذلك جوابة أفاق رحالة لا يستقر فزار عدة اقطار وهو ينظر ويتبصر ثم وضع كتاباً عن « الشرور الاهالية والعلاجات العملية وترسيم البلدة النموذجية » وظهر هذا الكتاب في سنة الثورات التي شملت أوربا كلها تقريبا وهي سنة ١٨٤٠ . وفي هذا ما يدلنا على البواعث التي تبتعث هذه الاخيلة في عقول المفكرين

وما هي هذه البلدة الانموذجية ؟ هي بلدة تدعى فكتوريا يؤسسها أفراد مشتركون على طريقة الشركة المحدودة المسئولية (ليمتد) وتحتوي هذه البلدة على جميع التحسينات الحديثة « من حيث الصقع والترسيم وصرف المجاري والتهوية والبناء والماء والضوء وسائر المتعات » ومساحتها

ميل مربع وعدد سكانها لا يزيد على ١٠٠٠٠ نفس . وعلى طرف المدينة تؤسس المصانع ومصنوعاتها ملك للشركة لا للافراد الذين يصنعونها . وحول المدينة ضيعة تبلغ ١٠٠٠٠ فدان هي ملك للشركة أيضا كما ان البيوت وسائر العقارات لا يملكها الافراد وانما تملكها الشركة . وهذه الشركة تستغل كل هذه الاشياء وتوزع الارباح على الافراد بنسبة ما لكل منهم من الاسهم فيها . ولا يجوز الاشتراك فيها لاحد ما لم يكتتب على الاقل بعشرين سهما ويثبت حسن نيته للمدينة ويكتب على نفسه عهداً يشرط على نفسه فيه الامتناع عن تناول الخمور أو العقاقير أو التبغ

وسيكون بالمدينة مغاسل ومطابخ ومطاعم عمومية ومكان عمومي أيضاً لتربية الاطفال الرضع . ويكون التعالج بالمجان كما يجري في الجيش . وان يكون بالمدينة قضاة ومحاكم وانما تكون هناك شرائع مسنونة يتعهد الاهالي بالسير عليها فاذا حدث اختلاف اختار المتخالفان حكماً ليفصل في خلافهم . والاهالي يتعهدون في جملة ما يتعهدون به عدم الشكوى الى المحاكم والرضا بما يحكم به الحكم المختار . وهذه التعهدات ضرورية لان مدينة فكتوريا يراد اقامتها في وسط أي دولة

فلابد لذلك من هذه التعهدات حتى تعيش مستقلة عما حولها في ادارتها وقضائها

والمشروع انجليزي أينما نظرت اليه . فهو عملي يمكن اقامته في أي مكان فلا يجبر الناس عليه ولا هو في حاجة الى أن تجربه أمة بأسرها اذ يكفي لنجاح المشروع أن يقوم به ١٠٠٠٠ نفس . ويقول بكنجهام انه اذا تأسست مثل هذه الشركة ونجحت سارت سائر البلاد على طريقها .
وهو في لبه كما يرى القارئ شركة تعاون كبيرة تبيع الغلات بنفسها ثم تقسم الارباح على مساهميها

من أعلام القرن التاسع عشر

أحلام القرن التاسع عشر كله وما يليه من ربع القرن العشرين هي كلها أحلام الآلات والعمال وكلها تتجه بالطبع وجهة اشتراكية شأن جميع الاحلام الماضية . ولكنها تمتاز منها بالعناية أكبر العناية بالعمال وبجعل الآلات أساساً للهيئة الاجتماعية . . وهاتان الميزتان كلتاهما لم يكن افلاطون يعرفهما . فهو كما يذكر القارئ حذف من ذهنه مسألة الصناع والعمال ولم يبال بهم الا أقل المبالاة أما الآلات في زمنه فلم تكن لها من الخطورة والأثر في الهيئة الاجتماعية ما يدعوه الى التفكير في شأنها . ولكن كل هذه الاحوال قد تغيرت في القرن التاسع عشر اذهو يشترك وقرننا في انه عصر الآلات وعصر العمال ٥٥

ومن أصحاب الاحلام المعدودين في القرن التاسع عشر أتين كابيه الذي وُلد سنة الثورة الفرنسية ١٧٨٨ وتوفي عند بداية امبراطورية نابليون الثالث سنة ١٨٥٦ . فرأى في صباه أحد مردة التاريخ نابليون الكبير وعبر القرن التاسع عشر بثوراته الكبرى سنة ١٨٤٨ وبمخترعاته العديدة التي

هي في الحقيقة أبعد أثراً من الثورات في النظم الاجتماعية

وميدان الحلم « ايكارية » وهي اقليم مقسم على طريقة الثورة الفرنسية الى أقسام اشارية . فبه مائة مديرية تستوي كلها في المساحة وعدد السكان وكل من هذه المديريات ينقسم الى عشر مراكز متساوية أيضاً لا يراعي كابيا في ذلك اختلاف سهل من الجبل أو الوادي الجديب من الوادي الخصب دنما هو يقسم مملكته كأنها رسم على الورق ينزع هذه نزعة بقوة الثورة الفرنسية التي أسست الطريقة المترية . وفي وسط « ايكارية » تقوم مدينة « ايكاره » عاصمتها وهي اشبه شيء بباريس لها نهرها أيضاً كما لباريس نهر السين . والمدينة مستديرة يشقها نهرها نصفين متساويين . ويقوم على شطين جداران مشيدان من الحجر منع انهيارهم وقد كري النهر حتى بعد غوره وحتى صارت بواخر لاقيانوسات تمخر فيه وتنقل البضائع الى ايكاره ومنها . وبها خمسون شارعاً توازي النهر وخمسون أخرى تقطعه . وقد خانت الطريقة العشرية هنا لان المدينة كما سبق فذكرنا مستديرة فكيف تتفق استدارتها ونظام هذه الشوارع . والمدينة مقسمة الى ٦٠ حيا كل منها يحتوي على مدرسة ومستشفى ومعبد وحوانيت . والمدينة مبنية عمارات بكم

عمارة ١٥ منزلا تحيط ببستان عمومي

والقرى في اقليم «ايكارية» تشبه المدينة من حيث التخطيط والمؤلف مهموم بالعناية بالصحة وبالرفاهية في الشارع . فمماشي الناس الى جانبي الشوارع مظللة بالزجاج وكذلك المحطات (أليست هي الآن كذلك ؟) أما الاصطبلات والمجازر والمستشفيات فتقع خارج القرية أو المدينة . وتقوم المصانع والمخازن على النهر أو الى السكك الحديدية لتسهيل النقل

والآن انتظر في النظام السائد الذي يجري عليه السكان

كان أتين كابيه مشبعاً بروح الزمن الذي عاش فيه . وكان نابليون يشمخ فيه كالمارد ولذلك بدأ كابيه حلمه بأن تخيل « ايكار » أميراً مستبداً يملي على الناس نظام حكومته فلا يخالفه احد . وخير ما يوضح هذا النظام هو وصف حياة أحد السكان

يبدأ الايكاري يومه في الساعة السادسة فيتناول فطوره في المطعم أو في المصنع . وقد قررت ألوان الفطور لجنة من العلماء نظرت في قرارها الى صحة المفطرين . وكأني بك تشك في هذا الطعام وهل يساغ على الرغم من قرار العلماء . وقد شك قبلك كابيه وأذن للسكان بأن يفطروا كما شاءوا وأينما شاءوا . واذا أفطر الايكاري قصد الى عمله فيشتغل في

الصيف ٧ ساعات وفي الشتاء ستاً . والمؤلف من أهل البلاد الباردة يرتاح الى العمل في الصيف على عكس ما هو حاصل عندنا . وجميع اهالي ايكارية يعملون هذا العدد من الساعات بلا امتياز أحد من آخر

والحكومة هي صاحبة المصانع وهي التي تنظم أوقات العمل بل هي التي تملك أيضا الخيول والمركبات التي تنقل البضائع . فهي اشتراكية لا غش فيها ومن هنا كانت « رحلة الى ايكارية » من الكتب التي تداولتها أيدي العمال كثيراً منذ طبعته الاولى سنة ١٨٤٥ وكان هذا الكتاب ذا أثر في تشبع العمال في أوربا بالفكر الاشتراكي

وعند ما يفرغ الايكاري من عمله يخلع ملابسه . تلك الملابس التي قررتها « لجنة الملابس » على نحو ما تقرر ادارة الجيش ملابس الجنود . والواقع ان الايكاريين جنود قد عبئوا للصناعة يجري عليهم نظام الجيش في جميع شؤونهم

وقبل أن يولد الايكاري تتلقى أمه دروسا في واجبات الامومة . فاذا بلغ الخامسة تناولته يد الحكومة بالتربية طبقا لبرنامج منتخب يتفق فيه جميع شباب الايكاريين الى السنة الثامنة عشرة للذكور والسابعة عشرة للاناث وعندئذ يسير كل شاب أو شابة في دراسة خاصة توافق الصناعة التي

سيتخذها فيما بعد . وهذه الصناعات محدودة معينة نرؤسها كلها لجنة تحصي عدد الصناع في جميع المصانع كل عام وتحصي مقدار البضائع المخزونة ثم تعين حاجتها الى عدد الصناع المطلوبين في كل صناعة وتأخذ من متخرجي المدارس من تحتاج اليهم من الفتيان والفتيات . والرجل يحال على المعاش اذا بلغ الخامسة والستين والمرأة اذا بلغت الخمسين

ولا يمكن الايكاري أن يتزوج قبل بلوغه العشرين أما الفتاة فيمكنها ذلك عند بلوغها الثامنة عشرة . أما الحكومة فكانت في نشأتها استبدادية لان كابيه تخيل « ايكار » شخصاً له ارادة نابوليون وسلطانه يعمل للاصلاح. ولكن بعد موته صارت نيابية لكل مديرية مجلسها وللاقليم كله مجلس منتخب من هذه المجالس وله هيئته التنفيذية التي تدير البلاد . والحكومة تصدر الصحف ولكن هذه الصحف مقصورة على ايراد الاخبار دون ارتياء الآراء لكي لا تكون منها ذريعة لتثبيت قدم الحكومة

ومن يقرأ « رحلة الى ايكارية » ويرى كيف ابتدأت بحكومة مستبدة تضع يدها على جميع المصانع والمدارس والصحف يشعر كأنه يقرأ تاريخ الشيوعية الحديثه في روسيا . والحق أن الشيوعيين في روسيا يطبقون الآن على الحياة حلم

من أعجب احلام القرن التاسع عشر وفائدة هذه الاحلام أو عدمها رهين بنجاح روسيا في تجربتها الرائعة التي لا يعرف لها مثيل في التاريخ.

سنة ٢٠٠٠

حلم لادوارد بلامي (١٨٥٠ ـ ١٨٩٨)

كان أوين وكابيه كلاهما اشتراكي يتخيل على يقظة ويحلم بتدبر ويقصد الى التطبيق والعمل. وقد أنشأ كل منهما مستعمرة لتجربة نظرياتهما وتحقيق خياليهما في انجلترا وامريكا. وأخفق كلاهما

ولكن ادوارد بلامي لم يكن مثلهما. فقد كانا هما مصلحين يدرسان العمران وأحوال العمال والصناعات. أما بلامي فكان أديباً اميركياً اعتنق الاشتراكية فوضع قصته: « نظرة الى الوراء » يصف فيها العالم كما تخيله سنة الفين وينتقد أحوالنا الراهنة في ضوء تلك السنة البعيدة وكل ذلك بلهجة أديب قد حذق فن القصص ولذلك لا تزال قصته شائعة بين الجمهور الانجليزي والاميركي وخاصة بين أوساط العمال

وهو يبدأ قصته بأن أحداً نوّمه تنويما مغنطيسيا فلم يستيقظ الا في سنة ٢٠٠٠. وكانت له قصة غرام مع آنسة سنة ١٨٨٧ وهو يصل غرامه القديم بحفيدتها سنة ٢٠٠٠ مما

لا شأن لنا في تفصيله لان غايتنا هو وصف ما وضعه لنا من الترسيمات الاصلاح

ولم يصف بلامي شيئا عظيما الا من حيث الحجم أم من حيث المتانة فان بناءه أرك بناء وأكثره تداعيا . فاذا أنت قرأت القصة سما بك ادبها الى خيال راق ورفعك قصدها العالي الى أسمى العواطف ولكنك اذا وقفت وتأملت شعرت كأن بلامي يصف لك مدينة كبيرة من ورق وان خيال افلاطون على ما به من سذاجة أمتن دعائم وأوثق نظاما من هذا الحلم الذي يراه بلامي في ختام القرن العشرين . ولكنك مع ذلك تشعر بتلك الدوافع الشريفة التي بعثت بلامي على أن يتخيل هذا الخيال . فهو يرغب في أن يرى هيئة اجتماعية يقعد فيها الفرد الى المائدة لكي ينعم بالطعام الفاخر ولا يرى انسانا واقفا قريبا منه يحسده على نعيمه ويتضور جوعا . ويرغب في أن يرى التربية عامة والتعليم شاملا الجميع لان للجاهل منظراً كريها ينعكس أثره على جميع أفراد الامة الذين يستوقرون من جهله ما لا قبل لهم بحمله . ويرغب في ان يحمل على عاتقه شيئا من ذلك العبء الذي تختص به طائفة الزبالين والكناسين وغيرهم لان مثل هذه الاعمال تشق وتقذر من تحملها طائفة

وحدها ويرغب أيضا في أن يستوي الناس في فرصة الأثراء بحيث لا تكون الثروات من الصدف التي يصيبها بعض الناس ويخطئها البعض الآخر . وهو فوق كل ذلك أديب يرغب في ألا يمتهن الحب وألا تقف اعتبارات الجزار أو البقال أو الخياط حجر عثرة في سبيل الحب المثمر بين فتى وفتاة يحجمان عن الزواج لان الفتى لا يستطيع شراء كذا أو كذا مما تحتاج اليه الزوجة . ويرغب في حمل الناس على الحياة الساذجة وكفهم عن التكلف والتصنع فيجب أن تصارح الفتاة حبيبها بأنها تحبه ويجب أن تلبس ما تشاء من اللباس البسيط وأن تفضي الى الناس بآرائها بدون أن تتقيد بعرف جائر وحياء متكلف

وكل هذه الرغبات حسنة في ذاتها ولكن بلامي يخطىء عندما يريد تحقيقها في خياله . وهنا يجب أن نقف هنيهة لكي نتأمل في الفرق بين خيال افلاطون وبين اخيلة هؤلاء الحالمين من أبناء القرن التاسع عشر . فان افلاطون لم يعن قليلا أو كثيراً بالعمال بل تركهم على ما كانوا عليه . ولكن جميع فلاسفة القرن الماضي لم يفكروا في اصلاح للهيئة الاجتماعية الا وكانت مسألة العمال هي المقدمة على كل المسائل . وعبرة ذلك هي أن عدد العمال قد كثر في هذا

القرن وصاروا هم جمهرة الامة وكثرتها وهذا بخلاف الهيئات الاجتماعيــة القديمة . وعلة ذلك تفشي الآلات وتمركز الثروات في أيدٍ قليلة وانهزام المالك الصغير أمام المالك الـكبير . وهذا هو شأن بلامي فانه يبدأ طوباه أو مثله الاعلى للهيئة الاجتماعية بحل مسألة العمل فهو يقول : ان أهالي الولايات المتحدة كانوا في القرن التاسع عشر قد تدربوا على تنظيم أعمالهم بواسطة شركات كبيرة فما قارب أن يختم هذا القرن حتى اندمجت هذه الشركات ادارة واحدة وصارت قسماً من الحكومة وصار عمال هذه الشركات جيشاً كبيراً يتألف من شباب الامة جميعه وهم يشتغلون كالجيش تسيطر عليه الحكومة ويجري عليه نظامها ويتناول منها أجوره . والعمل في هذا الجيش الزامي كما هو في الجيوش العسكرية الحاضرة اذا تخرج الشاب من الكلية انتظم فيه ثلاث سنوات يؤدي فيها الاعمال الشاقة الوضيعة . فاذا انتهت هذه المدة تقدم للتخصص في احدى الصناعات أو الفنون التي تعلن الحكومة عن حاجتها الى عمال لها . فيبقى في تعلم هذه الصناعة أو الفن الى أن يبلغ الثلاثين ومدارس الحكومة المختلفة تؤهله للصناعة التي ينتقيها . وبعد ذلك يصبر جندياً في جيش العمال العظيم الذي

تديره الحكومة وكل عامل مهما كان عمله يتناول أجراً يستوي فيه هو وغيره من العمال قدره ٨٠٠ جنيه في العام لا يمتاز في ذلك عامل انشاطه عن عامل آخر لكسله . وكل من لا يؤدي واجبه يعاقب . ولما كانت الاعمال تختلف من حيث الصعوبة والسهولة فان الحكومة تحترز من اقبال الناس على الاعمال السهلة وتجنبهم الصعبة بتقصير مدة العمل في هذه وإطالتها في تلك والاجر مع ذلك لا يختلف في كلا العملين ويجوز للعامل أن يستقيل ويحصل على معاش ٤٠٠ جنيه في العام اذا بلغ الثالثة والثلاثين أو أن يبقى في عمله الى الخامسة والاربعين ويحصل عندئذ على الاستقالة بمعاش كامل قدره ٨٠٠ جنيه

ولكن في هذا الجيش ثغرة فانه يلزم جميع الشباب بالعمل فيه ما عدا أولئك الذين ينتمون الى حرفة المؤلف . فان التأليف والاختراع خارجان عن هذا النظام ويجوز للعالم او المكتشف أو الاديب أن يمارس صناعته حراً كما هو الحال الآن ويكتسب من الجمهور ما يشاء . ولا بد ان بلامي وهو مؤلف قصصي قد عرف من أسرار صناعته ما يدعوه الى عدم الثقة بالحكومة . لان الحكومة بطبيعة وجودها تميل الى الجمود وبقاء الحال الحاضرة والمخترع والمكتشف

والاديب كلهم تقتضي صناعتهم شيئا من الخروج على المألوف وهم لذلك لا يجدون في الحكومة بيئة صالحة تزكو فيها أذهانهم

ولنرجع الآن الى « جيش العمال » فنقول ان جميع الاعمال من انتاج واستنفاد في حكومة سنة ٢٠٠٠ قد قسمت الى عشر مصالح كل مصلحة تضم الى حظيرتها طائفة من الصناعات المتجانسة . ولكل صناعة قلم خاص به السجلات الخاصة بها وما يتوافر من الاجور فيها يؤثل في الآلات والابنية التي تحتاج اليها هذه الصناعة . وهذا القلم هو الذي يقرر أثمان السلع التي يصنعها ولكنه لا يمكنه أن يستبد لان قانون الدولة يحظر الزيادة في الثمن الا بنسبة معينة لما أنفق على السلعة

ويرؤس « جيش العمال » رئيس الولايات المتحدة الذي ينتخبه انتخابا مباشراً جميع السكان بعد استثناء جيش العمال . وذلك لمنع استبداد الجيش بالاهالي . ولكن يبقى غرض آخر وهو : هل يرضى هذا الجيش على كثرته بأن يعين له رئيس وليس له صوت في تعيينه وهل يعمل هذا الرئيس شيئا لزيادة رفاهية العمال وهو منتخب بهذه الكيفية ؟

وهناك شك في اننا يمكن ادارة جيش كامل ليقوم بجميع الاعمال في أمة كبيرة تبلغ نحو مائة مليون نفس . لان هذه

الاشتراكية الحكومية بعيدة عن أن تتحقق في جميع الصناعات · واسنا في ذلك ننكر أن بعض الصناعات تنجح عن سبيل الاشتراكية الحكومية بل الاشتراكية البيروقراطية اكثر مما تنجح في يد الافراد كما نرى في السكك الحديدية المصرية : ولكن هناك من الصناعات ما لا يمكن ان ينجح الا اذا عولج على مقاييس صغيرة وفي ادارات محدودة المساحة ولكل بقعة شخصية تظهر في صناعاتها ولكل بيئة طابعها على الصانع الذي يمارس احدى صناعاتها. فالاشتراكية الحكومية لا تنجح في كل صناعة ولهذا نشأ بين الاشتراكيين الرأي الجديد القائل بالاشتراكية البلدية حيث تقوم البلديات بما تقوم به الافراد ،مستقلة في ذلك عن الحكومة

ولنلق نظرة الآن على الحياة الاجتماعية كما نخيلها بلامي فنحن نجد في طوباه طائفة كبيرة جداً من المتقاعدين الذين يعيشون عيشة الترف يجوبون آفاق العالم بفضل المعاش الكبير الذي يتناولونه أو يمارسون احدى الصناعات التي يهوونها أو احدى الرياضات . وهنا بلامي يعنى عناية كبيرة بالرياضة اذ يقول : « اذا كان الخبز أول حاجات الحياة فان الرياضة هي الحاجة الثانية »

ونجد طائفة كبيرة أخرى هي « جيش العمال » الذي

يقضي فيه الفرد ٢٤ عاماً وهو مرغم على العمل ارغاماً إذا تهاون فيه عوقب . وهذا في اعتقادنا ركن متداع من بناء الهيئة الاجتماعية عند بلامي . فان هذه المدة أطول من أن يحتملها انسان بالرضا

ولكل عائلة مسكنها ولكنها في غنى عن الطبخ لان لكل طائفة أو جزء من حي من المدينة مطعم كبير فيه غرفة خاصة بكل عائلة . وفي المنزل أداة التلفون التي لا تستعمل للتخاطب فقط بل اسماع الاغاني لان لها بوقاً يضخم الصوت فتقعد العائلة في ساعة معينة وتستمع لخطب الوعاظ والساسة وأناشيد المغنين . وقد لمح بلامي شيئاً من الراديو الذي يستعمل الآن في كل مكان في أوربا عند ما خطر بباله هذا الخاطر

ثلاثة من الانجليز

كلنا يعرف ذلك الشاعر الالماني الجسم الفرنسي الذهن هنريخ هينه كيف حكى عن نفسه أنه بدأ بالتحمس للديمقراطية واندفع للدفاع عنها حتى اذا رأى أن الديمقراطية هي حكم الدهماء أو العامة عاد فانكف عن دفاعه وتقلص في نفسه واعتاض من حماسته السابقة فتوراً وخوفا

ولقد كان القرن الماضي عصر ظهور الديمقراطيات وهو ايضا عصر فشل هـذه الديمقراطيات . فقد كان الظن اولا انه اذا صار الحكم للامة انتفى الاستبداد وزال الظلم . ولكن ظهر من تجارب هـذا القرن ان كثرة الامة اذا استوقرت تبعات الحكم لم تضطلع بها . لهذا جنح أبناء القرن العشرين الى التفكير في إيجاد « آلهة » للحكم ولن تنزل هذه الآلهة من السماء وانما هي تستولد من الانسان على نحو ما حلم افلاطون بايجاد طبقة من الحكام تقف نفسها على النظر في مصالح المدينة دون أن تحتاج الى المبالاة بمصالحها ودون أن يكون لافرادها عائلات أو عقارات تشغلهم

وكما كان القرن الماضي عصر ظهور الجمهوريات كان أيضاً عصر ظهور نظرية التطور التي أخذت منذ منتصفه

تملك على العقول مسالك التفكير وتصبغ النظريات والاحلام والترسيمات العمرانية بصبغتها . وهذه النظرية تتلخص من الوجهة العمرانية في أنه يمكن ان يرتقي الانسان حتى يصير الهًا أو سبرمانا كما ارتقى الانسان في الماضي من حيوانات أدنى منه . وهذه النظرية من حيث عدد الداعين اليها واشراب النفوس بها انجليزية ولذلك ليس ما يدعو الى أن نستغرب أن ثلاثة من كبار مفكري الانجليز قد حلموا بايجاد انتخاب صناعي يؤدي الى وجود طبقة راقية من الناس . ولا يكون رقيها مع ذلك رقياً في أحوال الوسط الذي تعيش فيه هذه الطبقة بل يكون في أجسامها وأذهانها

هكذا حلم شو ولكننا سنضطر الى تركه لانه لم يؤلف طوبى كاملة وانما ألقى جزافًا عدة مقترحات . وهكذا حلم ولز وهدسون . وكلاهما مشبع الذهن بنظرية التطور . فقد بدأ ولز حياته الادبية بتأليف كتاب عن تشريح الارنب وهو الآن يؤلف عن الآلهة تخرج من جسم الانسان تمية طاهرة من أدران الحيوان اما هدسون (١٨٦٠ — ١٩٢٤) فقد استأنف حياة جديدة للادب الانجليزي بأن فتح له باب الطبيعة على مصراعيه . فهو أديب من عشيرة الادباء الجديدة التي ستكثر في المستقبل ويتناول أدبها درس العلوم

كأنها فن من فنون الادب بل كأنها الادب كله . فهو يكتب لك عن القط والاسد والغراب والجبال والأنهار والانسان وسائر ذلك الملكوت العظيم الذي حرمنا منه أدباء العرب بتأليف الكلام استحساناً للجرس اللفظي ولبريق الكنايات والاستعارات

ولكن قبل ان نصف طوبى كل من ولز وهدسون يجب أن نلقي نظرة سريعة على طوبى أخرى من الطوبيات التي تولدت من القرن التاسع عشر نعني بها طوبى موريس لانها أشبه بالقرن التاسع عشر منها بالقرن العشرين . وقد كان موريس اشتراكيا تمذهب بهذا المذهب لبواعث فنية فانه وجد ان النظام الاقتصادي الحاضر بما فيه من مزاحمة شديدة يبعث الصانع على ان يصنع ارذل المصنوعات وأسخفها لكي يروجها في السوق . وان صاحب العمل يستغل عماله الى أقصى حد فيعملون ساعات طويلة ويتناولون أجوراً قليلة ويعيشون لذلك أضنك عيش وازراها . وكان هو في نفسه سري الذوق عظامي النزعة يلبس القميص الحريري ويصنع التزاويق المذهبة والحروف الملمعة لاغلفة الكتب . فكانت نزعته الى الاشتراكية نزعة الرجل البار الذي زكت نفسه وسمحت حتى يريد أن يرى في مدينته

ما يراه في بيته من جمال ولمعة وسرور . ويجب أن يرى في سائر البشر ما يراه في نفسه من ثقافة وصحة ، يلبسون ما يلبسه من حرير ويعيشون كما يعيش في رفاهية بل في ترف . ومثل هذه النزعة تهيء الذهن لترسيم الرؤى الجميلة لولا ما يشوب عقل الاشتراكي أو الشيوعي من القناعة بالاشتراكية والرضا باحلامها . لان الاشتراكية مهما قيل في مدحها تحتوي على نقائص أصيلة فيها هي موضوع درس الاشتراكيين الآن

يبدأ موريس (١٨٣٤ ـ ١٨٩٦) حلمه بأن يصف طوباه بأنها جاءت عقب ثورات تطهرت فيها مما كان يلوث القرن التاسع عشر . فهو يرى ناساً يجمعون النقود كما تجمع التحف والعاديات لا للتعامل . ويرى النساء في صحة وعافية يخالفن فيها نساء القرن الماضي اللواتي كانت تنطبع عليهن آثار البطالة أو الجهد من ترهل أو نحول . والمعيشة ساذجة لان الناس قد استغنوا عن جميع العروض التي كانوا يحتاجون اليها سابقاً للمنافسة والمباهاة لا للحاجة الحقة

وهم لذلك يعملون بلا كدح لان حاجاتهم قد قلت حتى صار القليل من العمل يكفي لسدادها . وقد عادوا مع ميلهم الى اتقان العمل الى الصناعات اليدوية وليس معنى هذا انهم استغنوا عن الآلات ولكنهم عرفوا ان القماش المنسوج

باليد على مهل خير من ذلك المنسوج بالآلة اذ هو أمتن منه وعليه من شخصية صانعه طابع خاص . وقل مثل ذلك في عدد كبير آخر من الصناعات . ثم ان الصانع الذي يعمل سلعة ما بيديه يشرع فيها من البداية ويتم أجزاءها قطعة بعد قطعة حتى تتم يرى في عمله من اللذة ما ترى الام في تربية ابنها أو ما يرى المؤلف في تأليف كتاب أي انه يشعر في نفسه بلذة الخالق للشيء الجديد . بخلاف ما نرى في مصانعنا الكبرى الآن حيث يختص كل عامل بجزء من العمل لا يتعداه يصنعه متكرهاً ولا يقبل عليه الا بمقدار ما يجذبه الاجر

ثم ان السذاجة التي اقتضت الرجوع الى الصناعات اليدوية والى تقليل الحاجات قد اقتضت أيضاً الغاء المدن الكبيرة والاستغناء عن المركبات والقطرات العظيمة لان كل بلدة تستنفد ما تنتج وهي تنتج كل ما تحتاج اليه . ولم يبق من اطلال لندن العظيمة سوى بناء البرلمان الذي صار الآن مخزناً لروث البهائم . والعامل قليل العمل ولكنه يشتغل بوحي الفن فهو لا يصنع السلع للتجارة ولكنه يتنوق ويجوّد فيها تجويد صاحب الفن الملهم . ونقول بعبارة أخرى ان توماس مور تخيل مثله الاعلى في رجال كلهم عالم أو باحث

أو طالب علم . اما وليم موريس فانه يتخيلهم رجال فن يقضون اكثر وقتهم في تجميل مدنهم والتنوق في تشييد منازلهم وصنع تماثيلهم وتحفهم

وليس في هذه الهيئة الاجتماعية حكومة سياسية أو ادارية من أي نوع كانت . وليس هناك قضاء . ولكن ليس معنى ذلك انه ليس بين هؤلاء الناس من لا يغضب او يحقد ومن لا ينتهي به الغضب والحقد الى ارتكاب الجرائم ففيهم من يفعل ذلك ولكنه لا يعاقب بل يترك لضميره وللعار الذي يلصق به امام الرأي العام . والجرائم قليلة لان الخير وفير فانجلترا كلها ليس فيها سوى نحو خمسة ملايين نفس بدلا من ثلاثين مليونا يسكنونها الآن . واذا قلّ السكان وكثرت الخيرات انتفى تي، كثير من أسباب النزاع بين الناس وعندئذ لا يحتاجون الى الاستياق الى المصانع الكبرى والتزاحم على الاعمال كما يجري بيننا الآن

ويرى القارئ من هذه العجالة ان موريس يسرف في حسن الظن بالناس وان الشيوعية فيه تغلب على الاشتراكية فهو لا يبالي بايجاد قواعد للنظام ولا يفكر في حكومة . وعنده أن البلدة الصغيرة قادرة على ادارة جميع شؤونها بنفسها . واذا نحن فرضنا أن ذلك ممكن ما دامت البلدة صغيرة لا تزيد

سكانها عن الف أو الفي نفس فهل يمكن أن يدوم هذا العدد كأن ليس بين النساء امرأة بلهاء تنسل كالارانب بدون أن تراعي مصلحة الجماعة أو كأن ليس بين البشر أدواء وافدة تحتاج الى نظام يكاد يشبه في قسوته الاحكام العرفية أو كأن ليس هناك نظام للتعليم أوفى من نظام آخر ويحتاج الى تنفيذه الى ما يشبه حكومة صغيرة

ولكن موريس رجل فن يريد قبل كل شيء أن يرى الجمال والمتانة في المساكن والمصنوعات وقد رأى من انتشار الآلات والمصانع الكبرى في القرن التاسع عشر ما أفسد عليه هذين الغرضين . فهو يكره القرن التاسع عشر بنزعته القوية الى الاستفراد والمزاحمة ويبغي ما يقابل هذين المبدأين فيميل بطبعه الى الشيوعية ويفرط في ميله اليها واستحسانه لها بمقدار افراط الناس في ذلك القرن في إكبار شأن الاستفراد

* * *

ثم لننظر الآن الى هدسون . ونحن في انتقالنا من موريس الى هدسون نقفز قفزة كبيرة . فان موريس من الارض عادي التفكير قد تكون شيوعية روسيا الحاضرة بعد تحوير طفيف شبيهة بحلمه ولا بد أن كتابه يعد الآن من الاناجيل المقدسة . أما هدسون فانه من السماء يتخطى

بنا آلاف السنين . فالقرن التاسع عشر أقرب من أن يلتفت اليه وشيوعية موريس أتفه من أن تشغله فهو ينظر الى تطور الانسان من الحيوان في الماضي ويود أن يستولد من هـذا الانسان آلهة جديدة

والوحدة الاجتماعية لهذه الرؤيا هي بيت قروي كبير مؤلف من عشرات الغرف ولهذا البيت تاريخه القديم وآدابه وفنونه كأنه دولة صغيرة وله ايضاً شرائعه التي يتبعها سكانه ويسهر على تنفيذها « ابو البيت » الاكبر وهو الذي يحكم بعزل أحد الافراد مثلا لجريمة ما . وحول هذا البيت مزرعته وله كلابه وخيوله التي قد تطورت فصارت تتفاهم مع الانسان وتؤدي غرضه بأيسر اشارة . وهم يعيشون في هذا البيت كل منهم في غرفته ولكنهم لا يعرفون الزواج . وهم يقضون الشهوة الجنسية قضاء عقيماً غير مثمر . لان وظيفة الاثمار خاصة بامرأة واحدة هي « يعسوب » البيت على نحو ما ترى في كوارة النحل حيث تحتكر الملكه أو يعسوب النحل وظيفة التناسل فيكون أبناء الجيل الجديد لها دون غيرها . فاذا قرر أفراد البيت انتقاء « الام » عمدوا الى احدى فتياتهم فيضعونها في مكتبة خاصة حيث تعرف من الاشياء والاسرار ما لا يجوز أن يقف عليـه غيرها من السكان .

ونحن نفهم بذلك أن السكان يختارونها لصفات وسمات بارزة فيها لا ترى في غيرها وان الاسرار التي تعرفها في المكتبة خاصة بقداسة وظيفة التناسل وانها يجب أن تنتقي أفضل الرجال ليكونوا آباء للجيل القادم . وان الكتب التي تقرؤها تخبرها عن صفات الفضل والنبل التي يجب أن تتوافر في الرجل حتى يحوز شرف الابوة لاحد أفراد الجيل الآتي. وليس في هذه الكوارة الآدمية من له حرمة هذه الام فهي تعيش بين اكرام الجميع لا مرد لكلمتها وهي تقضي حياتها في التناسل فتنجب للبيت نحو ٣٠ أو ٤٠ طفلا في حياتها حتى اذا ماتت اختير غيرها لتأدية عملها . وهكذا يسير هذا البيت أو هذه العائلة الكبيرة جيلا بعد جيل فتحذف منه الصفات السيئة وتنتقى وتخلد الصفات الحسنة لان « الام » قد درست موضوع التناسل والوراثة وعرفت أن واجبها أن ترفع بيتها درجة في سلم التطور . فكل من به نقص في الجمال أو الذكاء أو الصحة أو الاخلاق لا يكون له حظ الابوة وان كان له من النساء الاخريات ما يشبع فيه شهوة جسدية عقيمة . ونفهم من هذا النظام أن سكان البيت قد لا يزيدون عن ٨٠ أو ١٠٠ شخص ولكنهم

دويلة صغيرة فيها من يختص للعلوم أو للزراعة أو للفنون والصناعات الاخرى

وليس في هذا النظام ما يخالف الطبيعة البشرية كما يتوهم القارىء لاول وهلة . فان « العائلة » لا تزال موجودة بوجود الام التي هي صلة القرابة بين جميع السكان . ثم ان الابناء لا يعرفون لهم أباً معيناً فالمنفعة الشخصية والأثرة الابوية منتفية وبذلك ينتفي التنازع بين أفراد البيت . ثم ان الشهوة الجنسية غير مقيدة لان لجميع الافراد أن يتمتعوا بها بشرط ألا تعقب نسلا . وقد عرف الانسان نوعاً من هذا الزواج يدعى « الضمد » كان العرب يمارسونه وما زال يمارس في آسيا حيث يتزوج ثلاثة أو اربعة من الرجال (يكونون في العادة اخوة) امرأة واحدة وينسب الاولاد للاخ الاكبر

* * *

ولنلق الآن نظرة عاجلة على الطوبى الاخيرة طوبى ولز . وهي أحدث الطوبيات إذ نشرت سنة ١٩٠٦ . ولسنا ننسى طوبى أخرى أحدث منها عهداً وضعها برنارد شو في قالب درامة ولكنها لهذا السبب ستعصي على التلخيص . وولز كاتب طوبوي كثير الاخيلة والاحلام لا يخلو كتاب له

الاربع . وهم اشبه شيء في نظامهم بطائفة اليسوعيين . فكما ان هؤلاء قد ضحوا بملاذ الدنيا وارتضوا النسك خدمة للمسيحية في عالمنا فكذلك يدخل السامرائي في طائفته مضحياً بكل شيء في العالم لكي يتفرغ لاصلاحه ودرس أمثل الوجوه التي ينبغي ان تسير عليها ادارته سواء أكانت في جماعة او عائلة

وليس في هذا المقترح شيء غريب لانه اذا كان في الدين من القوة ما يحث طائفة من الناس على ان تقبل النسك والاعتكاف في دير قصي تتعبد فيه ولا تفكر في ولد يخلفها أو ميراث تعقبه له فليس من الكبير على أبناء القرن العشرين أن تتألف بينهم « رهبانية » يكون غرضها خدمة الانسان بدلا من خدمة الآلهة

الحقيقة بنت الوهم

اذا كانت الحقيقة هي بنت البحث فان البحث هو ايضاً ابن الوهم نتوهم أولا ثم نبحث ثم نتحقق. نحلم ببناء البيت ونتوهمه في مخيلتنا قائماً مشيداً ثم نبحث عن مواده وأسبابه ثم نبنيه طبق توهمنا الاول. وما من ثورة أو انقلاب أو اصلاح توافرت أسبابها لامة ما إلا وكانت وهماً يتوهمه قبلا أحد مفكريها

والقضية لا تنعكس فان كثيراً من أوهام العلماء واحلامهم ذهبت هباء إما لانها كانت أضغاثاً وركاماً غير منسقة وإما لانها جاءت قبل أوانها. ولكننا لو عرضنا طائفة من الانقلابات الحديثة لرأينا فيها أثر المثل العليا التي رآها الفلاسفة والمفكرون. وقد يظن القارىء لفرط ما هو لاصق بالحقائق أن أثر هذه الاحلام ضعيف في هيئتنا الاجتماعية والحقيقة أنه كبير جداً بل هو اكبر في بعض الحالات مما كان يجب أن يكون. فلو أن الشيوعيين في روسيا مثلا لم يستسلموا كل الاستسلام لمن حلموا بالشيوعية مثل باكونين وكروبتكين وغيرهما لعدلوا بنظامهم الراهن عن كثير من نقائصه التي تكاد تهدمه من الاساس. ثم ليس

هناك شك في أن « عصبة الامم » ليست الا تحقيقاً لحلم المسيحية في إيجاد السلام في العالم . وقد حلم نيتشه « بحكومة الولايات المتحدة الاوربية » ورأى ولز في طوباه حكومة عالمية يخضع لها العالم كله

واعتبر مثلا تلك الثورة الاميركية التي انتهت بتأسيس الولايات المتحدة أو تلك الثورة الفرنسية التي انتهت بمحو الملوكية من فرنسا تجد انهما انما جاءتا عقب أحلام الفلاسفة في فرنسا وأميركا عن الحرية والمساواة وسائر هذه الافكار التي لا يزال الناس للآن يحدون في سبيل تحقيقها

بل اعتبر التعليم العام والدعوة اليه فقد دعا اليه كثير من الفلاسفة وهو لا يزال للآن على الرغم من انتشار المدارس خيالا أكثر مما هو حقيقة . وهنا في مسألة التعليم هذه يجب أن نقف لكي نرى شيئاً من فعل الخيال في النفس وسيطرته على العقل فان جميع من تخيلوا المثل العليا لم ينسوا أن يفكروا في التعليم وتعميمه كما أن الذين تشوفوا الى عهد المساواة ورجوا تحقيقه لم ينسوا أن يذكروا ان المساواة في فرصة التعلم هي ارقى ضروب المساواة وأعدلها . وكانت نتيجة ذلك انه لم ينتصف القرن التاسع عشر حتى كانت جميع الامم الاوربية قد رسخ في أذهان أبنائها وجوب تعميم

التعليم . ولكن فرقاً بين خيال الفيلسوف ينضجه رأسه المثقف وبين الحقيقة تتناولها أيدي المتوسطين من الناس . فان التعليم الآن على عموميته في أوربا ومجانيته لا يزال صورة وقشراً أكثر منه حقيقة ولباً . اذ هو في الواقع الراهن لا يزيد عن ان يكون لعبة أدواتها الورق والقلم . فالصبيان يتعلمون شيئاً من الجغرافية على الورق وشيئاً من التاريخ على الورق وحساب البيع والشراء على الورق . والرسم ينقل من الورق الى الورق . والاشعار تحفظ من الورق وفي جميع البيوت أو اكثرها تجد ورقاً مضموما بعضه الى بعض نسمى الكتب يدعي كلنا ان فيها معلومات مفيدة . وقد نشأ من هذا التعليم ان كثر الورق حتى صرنا نقرأ عدة صحف من ورق كل يوم وصرنا نعتاض من التمثيل مثلا تمثيلا آخر ينقل من ورق أو ما يشبه الورق الى ورق أو ما اشبهه . ولكن أولئك الفلاسفة الذين تخيلوا التعليم العام لم يعتقدوا قط ان هذه الثقافة الورقية هي نتيجة أحلامهم . وهم لو سألتهم كيف يجب ان يعلم الرسم لاجابوك على الفور : في الحقل وفي الغابات وفي الاسواق وعند قطعان الغنم وامام بواسق الاشجار . ولو انت طلبت من ولز : كيف يجب ان نعلم الجغرافية او التاريخ لاجابك على الفور : وهل مثل هذا

السؤال يُسأل وهل في العالم سبيل آخر الى تعلمها غير السياحة وهل من العدل ان يموت انسان في هذا العالم لم يعرف البحر أو الجبل ما هما ؟ ولو أنت سألت احد الكيمائيين العظام : كيف نعلم صبياننا وشباننا الكيمياء لما تردد في الاجابة بان ذلك لا يكون بلا بوتقة ونحو عشرين او ثلاثين اداة أخرى

ولكن الساسة الذين يديرون شؤون الامم الآن بغير حق يجدون ان التعليم بهذه الطرق يكلف الامة نفقات طائلة فهم لذلك يمسخون التعليم حتى يجعلوه جملة ألاعيب مملة تصنع بقلم وورق ومداد . وهم يرون من السهل ان يقرأ الشاب في كتابه ان حيوان البحر هو كيت وكيت تكتب له انواعه قائمة كما تكتب قائمة الفنادق فيحفظها عن ظهر قلب لان هذا أيسر على رجل السياسة من ايجاد سمكة كبيرة تكلف في العام نحو عشرة آلاف جنيه ومن السهل أيضاً أن يحفظ التلميذ درسه عن النبات من الورق وينقل رسومه بقلمه من ورق الكتاب الى ورق كناشته لان رجل السياسة الذي يدير حظوظ الامم الآن بغير حق يجد ان تعليم التلميذ حياة النبات من الحقل والغابة يكلف الامة نفقات كبيرة يخشى ان هو طلبها من الامة أن تسقطه في الانتخاب فهو لذلك يؤثر لعبة القلم والورق

ولكن العلماء يعرفون أن التعليم الحقيقي هو أن يحتك الانسان بالطبيعة ويلابسها ويعرف منها ما يريد أن يعرف مباشرة وانه خير للصبي أن تلسع أصبعه بالنار من أن يقال له ان النار تحرق . وان يوماً واحداً في الصحراء يقضيه على رملها ويستنشق هواءها ويحس ظمأها وتكتنفه بداوتها خير له من أن يقرأ آلاف الكتب عن علاقة البداوة بالحضارة وحياة النبات والحيوان في الصحاري

وليس من العدل أن نقول أن كل التعليم يجري الآن بواسطة القلم والورق . والحق أنه لو كان كذلك لما تقدم الطب ولا الهندسة . فلقد كان الطبيب العربي يقصر علمه في الامراض على ما تعلمه بالقلم والورق وكان الخلفاء يمنعون الاطباء من التشريح فبقي الطب لعبة سخيفة في ايدي المشعوذين . وكان علم القرون الوسطى يجري على هذا النحو ايضاً . فلما كانت النهضة الاوربية الحديثة أخذ العلماء في هجران علوم القلم والورق ولجأوا الى الطبيعة فصاروا يشرحون النبات والحيوان ويجربون بأيديهم التجارب العلمية. ولكن هذا الهجران لم يتم فان معظم ثقافتنا الآن هي ثقافة الورق وهي لذلك لا تقترن بأذهاننا ذلك الاقتران الشرعي المنجب بل هي تخالل أذهاننا مخاللة عقيمة . فلو أنا مثلا

كنا نعرف النبات باقسامه وأنواعه حيه ومتحجره لأثمرت معرفتنا وأصبح كل منا أشبه شيء بمكتشف أو مخترع في هذه المملكة العجيبة التي يصح أن يقال عنا فيها أننا نسمع عنها ولا نراها

وما يقال عن التعليم يمكن أن يقال مثله عن سائر الاشياء التي حلم بها الفلاسفة فأخذت قشورها العامة وتركوا لبها . فان المدن الحاضرة وما فيها من نظام اكثره قائم على وفرة مخترعات النقل يرجع الى أحلام الفلاسفة عن عصر الآلات الذي تنبأوا به . ولكن هؤلاء عندما كانوا يفكرون في اختراع الآلات كانوا ينظرون منه الى أن يوفروا على الناس وقتهم كي يشغلوه فيما هو أزكى لنفوسهم وأدعى لراحتهم ولكن عامة الامم أخذت من اختراع الآلات ذريعة لزيادة ثروة أصحاب المصانع ولو كان في ذلك زيادة جهد العمال واشتغالهم بالكدح المعاش

تطور الاحلام

قد يكون من الفحة أن تخبر فتاة عن تأويل ما رأت فيما يرى النائم من أمير بهي الطلعة وسيم القد قد حياها وحاول أن يقبل يدها أو قبلها . فان في التأويل الصحيح اتهاماً لعقلها الباطن الذي ينطلق وقت النوم ويفرج لشهوات الجسم ما قيد منها العقل الظاهر وقت الصحو . والاحلام سواء أكانت من رؤى اليقظة أم من رؤى النوم دليل على شهوات أو رغبات لا يحققها الوعي أو اليقظة التامة

وقد يكون أسدّ المؤرخ وأجدى عليه اذا هو نصب نفسه لدرس تاريخ أمة ما أن يعمد الى خرافاتها التي تتكشف فيها أحلامها فيدرسها ويعرف منها تلك الشهوات والنوازع التي كانت تعتلج بها نفوس أبنائها . فسرد تاريخ الفراعنة مثلا بما فيه من حروب وأسرى وانتصارات ونحو ذلك قد يكون أقل جدوى في معرفة تاريخ الامة من تحليل قصة خرافية وأحدوثة كانت تتحدث بها العامة في سمرهم . لان في هذه الاحدوثة تتجسم رغبات هؤلاء العامة وهي تمثل ما كانت تشتهيه نفوسهم . وهي أصدق في وصف أحوالهم

من الاكاذيب التي كان الفراعنة يكتبونها أحياناً عن أنفسهم قبل وفاتهم

وقد كانت أول طوبى فكر فيها الانسان من الطوبيات الخرافية التي دخلت في صلب الدين . فان المصري القديم مثلاً عندما وجد أن اصلاح الحال في الدنيا من المحال وان قوى الاستبداد متألبة عليه وانه يسخر طول النهار فيكدح في وهج الشمس أخذ يحلم بنعيم يراه بعد الموت . فهو يكدح هنا يتهضمه الولاة الظلمة ويصدمون فيه شهوات نفسه . وعلى ذلك فهو يرى في نعيم الآخرة ميزاناً منصوباً لمعاقبة هؤلاء الظلمة ويرى الهناء والراحة في ظلال الاشجار التي تتغلغل بينها جداول الماء . وهو في هذا الخيال الحلو لا يختلف عن الجائع أو العطشان الذي لا يرى في نومه سوى الموائد مبسوطة والشراب المصفى إلا من حيث أن حلمه قد صار حلم الامة بأسرها وخرج من زوايته نعود الى رواية المجموع

ثم جاء فيلسوف فرسم طوبى هذا عالم لا يعبأ بما بعد الموت ولا يأبى بمصير الأمة . ولكن فيلسوف من ذوي الاحلام الارضية لفرط اعتماده على الحقائق الملموسة عني بالمادة أكثر مما عني بالمبدأ و[illegible] كثير من [illegible] غاية ولذلك

كثيراً ما نتصفح الحلم فنتساءل عندما نبلغ خاتمته : هل هذه هي السعادة والرقي أو هل هذه ما نتعوض منهما . هل نحن بازاء الاصل أم بازاء البدل ؟

ثم قد نتساءل أيضاً : لماذا لم يتحقق حلم من هذه الاحلام مع مضي مئات السنين على بعضها ؟

وهنا نرى ميزة الاديان على أحلام الفلاسفة ومن دونهم من المفكرين . فان الدين قبل أن يعد بطوبى العالم الآخر كان يطلب من الفرد أن يغير بالايمان قلبه وأن تتبدل نفسه نفساً أخرى هي نفس المؤمن المرتاح الى ايمانه الراضي به بدلا من نفسه السابقه نفس الكافر الذي توسوس اليها الشكوك . وكان هذا الايمان وحده كافيا لان ييسر على المؤمن كل تغيير يراد في طرق المعاش والاجتماع والزواج و نظام الحكومة وغير ذلك . ونقول بعبارة أخرى ان الدين كان يحاول تغيير الهيئة الاجتماعية بعد أن يبلغ قلب الفرد فيغيره بل يخلقه من جديد . وكان لذلك ينجح في تحقيق غرضه لان أداة تحقيق هذا الغرض هو الفرد . فاذا لم يكن هو قد تغير فكيف نطلب منه أن يغير طرق الهيئة الاجتماعية

وهذا هو الفرق بين الاديان وبين أحلام الفلاسفة . فالاديان جعلت تبديل الوسط رهناً بتبديل الفرد فاستطاعت

أن توجد هيئة اجتماعية مسلمة أو مسيحية أو يهودية . ولكن طوبيات الفلاسفة وخاصة في القرن التاسع عشر لم تبال بالفرد أقل مبالاة وانما عنيت بالوسط

ففي القرن التاسع عشر نجد صيحات اصلاحية عديدة أعلاها نبرة هي صيحة الاصلاح الاقتصادي . ولكن منها أيضاً ما كان يدعو الى اصلاح الحكومة أو التربية أو نحو ذلك من ملابسات الوسط الذي يعيش فيه الانسان . وكلها خالية من شرطين أساسيين لنجاح أية دعاية

الشرط الاول : ان الغاية لم تكن واضحة هل هي الصحة أو الجمال أو حسن الادارة أو كثرة المال . وهبل أن هذه الاشياء كانت هي أو بعضها غاية ذوي الاحلام من الفلاسفة فهل كانت تؤدي الى السعادة والرقي ؟

الشرط الثاني : أنها كانت خلواً من إيجاد أية وسيلة لتغيير الفرد فان الاديان غيرت قلوب الناس وتمكنت بذلك من إنفاذ ما حسبته اصلاحا . ولكن الطوبويين لم يغيروا شيئاً من قلوب الناس تمهيداً لقبولهم برامجهم

وجمهور الناس في كل أمة ليسوا عامة فقط بل هم أوباش يميلون الى القرد اكثر مما يميلون الى السبرمان . ومن هنا تلك السهولة التي يملك بها زمامهم خطيب مفوه أو طاغية

ماكر أو ولي أبله لان هؤلاء يخاطبون عواطفهم التي تستجيب الى خطابهم أما الفيلسوف الذي يخاطب فيهم عقولهم فلا يجد فيهم ملبياً . والعواطف أقدم وأرسخ في طبيعتنا من العقل وهي اذا طمت بنا طغت على العقل

وعلى ذلك نقول ان الطوبيات الأرضية لن يفلح أصحابها في تحقيقها مالم يغيروا نفوس الافراد . وليس هذا بالشيء العظيم كما يتصور القارىء . فقد استطاع الدين أن يغير قلوبهم فلمَ لا تغير اليوجنية عقولهم بمنع البله والمضعوفين من التناسل حتى يرتقي الانسان جيلا بعد جيل فيتمشى رقي الوسط مع رقي الانسان نفسه . فان البولشفية مثلا هي الصورة الكاريكاتورية لاحلام فلاسفة القرن التاسع عشر وهي انما انحطت الى هذا الدرك لان أدواتها من الناس ليسوا على مستواها هي

وخلاصة فصلنا هذا ان الطوبيات قد تطورت ثلاثا :

١ — طوبى العامة التي نراها في أحاديثهم القديمة والحديثة وهي سلواهم تكمل لهم ما تقصهم من حقائق الحياة

٢ — طوبى الاديان وهي في الحقيقة طوبيان : واحدة في العالم الآخر وهي ترمي الى تغيير نفس المؤمن بوعوده بالمكافأة . فاذا تغيرت النفوس وقبلت الايمان لم تعارض في

الطوبى الارضية التي يرسمها الدين لنظام الحياة على الارض

٣ — طوبى الفلاسفه وهى لا يمكن تحقيقها مالم يكن غرضها واحداً وهو السعادة والرقي أو الحياة الطيبة التي تعمل لراحة الفرد وهنائه وارتقاء الاجيال . ومالم تحارب البلاهة في الامم بمنع البله والمصعوفين من التناسل

نقد ومراجعة

كانت معارف الانسان الى ظهور ارسطوطاليس واحدة كلها أدب . فلم يكن فاصل بين الادب والعلم لان الاديب وهو رجل الخيال كان أيضاً عالماً . وكان العالم وهو رجل الحقيقة أديباً خيالياً . فلما جاء ارسطوطاليس وشرع في تأليف « التاريخ الطبيعي » نزع فيه نزعة علمية قائمة على المترط والتجربة فميز بذلك بين العلم والادب . وظهرت بعده مدرسة الاسكندرية وكانت قيمة العلم فيها والعناية به اكبر من قيمة الادب . وجاء العرب ولم يكن أدبهم مما يغري النفس بالخيال اذ كان عماده الالفاظ وما يلحق النفس من الطرب لرنينها فاندفعت منهم جماعة كبيرة نحو العلم التجريبي . فلما كانت النهضة الاوربية الحديثةعاد الاوربيون الى الاغريق القدماء عن سبيل العرب فنزعوا نزعة علمية عن العرب ونزعة أخرى أدبية عن الاغريق

وبيان الفرق بين العلم والادب يحتاج الى بعض التفصيل فالعلم موضوعي والادب ذاتي . فالعالم يبحث قطعة من المعدن أو مرضاً من الامراض أو نجماً أو نباتاً وهو بعيد عنه لا ينظر لعلاقته به ولا يبالي بمنفعة هذا البحث أو ضرره للانسان .

فقد يهتدي العالم في بحثه الى سم من أوحى السموم فلا يدخل في بحثه ان هذا السم يمكن ان يستعمل في الحرب لقتل العدو ويمكن ان يكتشف عن سبيله سم آخر لقتل النوع البشري كله . وقد يهتدي الى اختراع آلة فلا يبالي بعدد العمال الذين يستغنى عنهم باستعمال هذه الآلة لانه لا يعنى بعلاقة العلم الذي يبحث فيه بالانسان وانما كل عنايته بالعلم نفسه يبحث فيه وهو غريب عنه بعيد عن منفعته أو ضرره . فاذا رأيت عالماً يبحث في توفير الوقود أو زيادة كفاية الآلة في العمل ألفيته مشغولاً بهذه الاشياء دون أي اعتبار لتأثيرها في العامل الواقف امام هذه الآلة وما ينشأ بينه وبين صاحب الآلة من العلاقة الجديدة لهذا الفرق الجديد في الوقود أو العمل

وهذا بخلاف الاديب فانه يبالي بالانسان لا بالاشياء فهو لا يمارس الادب لذاته كما يمارس العالم العلم لذاته وانما هو يزاول ادبه لعلاقته بالانسان . وهو لذلك خيالي يبحث في الدين والاخلاق والشرائع . فالادب بطبيعته اصلاحي موضوعه الانسان . والعلم لا يمكن ان يكون اصلاحياً أو افسادياً لان موضوعه الاشياء فقط . والاديب يعكس جميع المعارف في ذهنه لكي يعرف منها أيها مفيد للانسان فيزاوله

وأما ما لم يكن كذلك فلا يفكر فيه ولا يكترث له . حتى العالم وهو يبحث في شيء انساني ينظر اليه كأنه « شيء » مستقل عن الانسان فالالماس زينة المرأة « كربون » والحمى ناشئة عن « مكروب »

وفي كلمة سقراط ما يدل على روح الاديب فقد قال : « أنت تعرف أن الاشجار في الحقول لا تعلمني شيئاً . وانما أنا أتعلم وأنتفع من الناس في السوق »

ولكن جاء ارسططاليس فقسم المعارف قسمين : المعارف الخارجية التي يمكن جميع الناس ان يتناولوها وهذه هي الادب بفروعه . وأساسه التجارب الانسانية . ثم المعارف الداخلية وموضوعها الاشياء ودرسها وهي العلم . والاولى هي معارف العامة أما الثانية فهي معارف الخاصة

ونحن للآن نجري على هذا التقسيم فلاي فرد من العامة أن يتكلم أو يكتب ما شاء عن الدين أو الاخلاق أو الشعر أو القصص أو العمران او الاقتصاد ولكن ليس له ان يكتب عن الكيمياء أو الطب أو الهندسة

وقد قلنا ان النهضة الاوربية الحديثة نزعت نزعة علمية وهي لا تزال كذلك الآن . وليس شك في ان كبار العلماء في كل وقت كانوا من كبار الادباء لان الذهن الكبير يأبى

أن يرضى بأن يكون مخزناً تدخر فيه المعارف بلا غاية أو قصد . واذا قلت الغاية في العلم فقد قلبت العلم الى أدب لانك عندئذ لا تكتفي بان تقول ان الالماس كربون بل تضطر الى ان تتساءل : هل هو جميل ؟ هل هو جدير بنفقة استنباطه ؟ هل من المصلحة العمرانية ان تلبسه طبقة دون طبقة من الناس ثم أيهما أجمل وأنفع لبني الانسان أن يتجه نظرهم نحو جمال الوجه او جمال الصنعة اي تكون الاصابع جميلة من ذاتها أو مجملة بالالماس ؟

لذلك كان ولا يزال كبار الادباء علماء وكبار العلماء أدباء وحسبنا أن نذكر ارسطوطاليس الذي كان يؤلف عن اصول البلاغة والتاريخ الطبيعي أو دافنشي الذي كان يمارس الرسم ويخترع الطيارات أو جيته الذي كان يشتغل بالتشريح وبتأليف القصص والشعر . ولكن جمهور العلماء الآن طائفة خاصة بعيدة عن طائفة الادباء . وهذا البعد بينهما وانفصال الواحدة عن الاخرى قد أثر أثره في الهيئة الاجتماعية التي نعيش فيها

وذلك لان الادب بجميع فروعه لا يحيا ويزكو الا اذا قام على اساس العلم . والعلم نفسه معارف جوفاء لا غاية لها إلا اذا هضمها الاديب ومثلها في ذهنه . ومن هنا انفصل الادب

والعلم كلاهما عن الحياة . فالاديب الآن سواء أكان رجل دين او تصويرأوقصص أو شعر أوغير ذلك من فنون الادب يبحث مثلا عن السعادة المنزلية وهو لا يدري شيئاً عن مادة البناء أو أنواع النبات الذي يستطرف للزينة أو هندسة التهوية الصحية أو تطهير المدن أو غير ذلك مما يعرفه العالم ويختص به . ولكن العالم ايضاً وهو يعرف هذه الاشياء يجهل عنصر الجمال في المنزل فيبنيه كأنه يبني سجناً أو مصنعاً

وخلاصة ما تقدم كله أن أحلام الفلاسفة يعتورها في جملتها نقص عظيم وهي انها نتاج أفكار الادباء أو أفكار العلماء . وقلما نجد أديباً عالماً مثل افلاطون أو ولز أو هدسون يحاول أن يجمع بين الادب والعلم في تخيل طوباه . والحقيقة أن الانسان في زمننا الحاضر يشق عليه أن يجمع بين الاثنين إلا اذا قنع من العلم بالتطرف من فروعه المختلفة دون الامعان فيها . وعلة ذلك أن العلم قد تقدم وصارت الاحاطة بأحد فروعه تستغرق الحياة بأجمعها فاما أن يطول العمر حتى يبلغ مائتي عام أو ثلثمائة وإما أن نقنع بقليل الدرس منه

ولكن يجب أن نعرف أن تقدم العلوم بحيث لا تمشى مع تقدم الآداب يؤذي الناس ولا يفيدهم . فاذا عرف الناس مثلا علم الكيمياء وما هي الغازات القاتلة التي تفنى منها

الجيوش أو المدن في ساعة دون أن يكون لهم مع ذلك خيال راق أو عقيدة سامية في مستقبل الانسان أو معنى مهذب للجمال كان علمهم بالكيمياء ضرباً من أذى النفس الذي يجب أن يحاط الناس منه

وحضارتنا الراهنة هي حضارة العلم المنفصل عن الادب أي حضارة الصناعة القائمة على ادمان الاختراع الآلي الى أقصى حد . ولكن الصناعات مهما أوتيت من رقي ان هي إلا وسيلة وسبب من وسائل الحياة وأسبابها ولذلك ما زلنا نحن على رقينا الصناعي الحاضر نتساءل : أينا أصح نظراً للحياة والسعادة وتقدير الجمال والرقي نحن أم المصريون القدماء أم الاغريق القدماء ؟

فاذا أردنا أن نشرع في تخيل أخيلة صحيحة يمكن تحققها يجب قبل كل شيء أن نصل ما افترق من العلم والادب . ولا عبرة بتأخر العلم في هذه الحالة . فان تقدمه وحده لا فائدة فيه . انما يجب أن نذكر ان العلم انما ارتقى وحده لانفصاله عن الحياة أو بعبارة أصح نقول انه ارتقى لانه حين تجرد من العامل الشخصي وصار موضوعه الاشياء دون الناس انطلق من جميع القيود التي يضعها ذوو السلطان الحكومي أو المالي أو الديني على فنون الادب كما هو الواقع

الآن في معاملتهم للبحث الديني أو العمراني . فلن يرقى الادب حتى ينطلق هو أيضاً من هذه القيود بحيث يجوز عمل التجربه العمرانية كما تعمل التجربة الكيمائية ويجوز ابتكار العقيدة الدينية كما يجوز اختراع أية آلة للصناعة . فاذا تخيل الاديب خياله ورسم طوباه لم يكن ذلك لمجرد اللذة أو التسلية وانما هو يبني على قواعد العلم بحيث يصير خياله عملياً تتيسر تجربته في مدينة أو قرية أو مديرية او قطر

ومعظم ما وضع من الطوبيات في القرن التاسع عشر عني فيه أكثر مما يجب بالنظام الاقتصادي للامة . وكان هذا طبيعياً للانقلاب الاقتصادي الكبير الذي حدث في القرن الماضي بانتشار الآلات . ولكن النظام الاقتصادي ليس كل شيء

وهو ايضاً لا يمكن حله ما لم تحل الى جانبه مسائل اخرى . لان الاعتماد على حل مسائل الحياة بتنظيم عمل الآلات هو حل علمي موضوعي ناقص . لان الحياة تحتاج أيضاً الى حل ادبي يدخل فيه الاعتبار الديني والثقافي والاخلاقي ولن يكون ذلك حتى يكون الاديب عالماً أو العالم اديباً

وبعبارة اخرى نقول ان الامة التي ترتقي فيها مركبة

كالاتوموبيل مرة كل عام باختراع أداة جديدة لا نعتبر انها
سائرة نحو الحضارة الصحيحة ما لم يرتق دينها وينقح على
الاقل مرة في العام ايضاً . والحضارة التي تعنى بمكتشفات
العلم ان تكون حضارة صحيحة ما لم تعن بمكتشفات الادب .
والامة التي تجرب طريقة جديدة لمزج الاصباغ لن تكون
حياتها صحيحة ما لم تجرب الى ذلك طريقة جديدة للمعيشة بين
الافراد بحيث يساوق رقيها العمراني رقيها الصناعي

مقدمة لطوبى مصرية

كل طوبى بطبيعتها محلية . ومن المحال ان تؤلف طوبى عالمية لان لكل مكان أو بقعة جغرافية « شخصية » تحتاج في معالجتها الى طرق تختلف عما تحتاج اليه أية بقعة أخرى فالمثل الاعلى للعيس في مصر يجب ان يختلف عما هو في اليابان أو البرازيل

وانقد ذكرنا جملة شروط لتحيل طوبى صالحة للعمل . منها ان يقوم بها اديب عالم . ومنها ان يكون الجمهور قادراً بذكائه على ادراك حقيقتها . ولكن قبل كل ذلك يجب ان يحب صاحب الخيال او رائي الرؤيا موضوعه . وما موضوعه هذا سوى وطنه

وهل لي ان أشك في وطنية الاديب المصري وحبه لبلاده ؟

حسبك ايها القارىء أن تعرف أن « وطنية » ليست لفظة عربية مثلها مثل « العائلة » فكلاهما ترجمة لمعان افرنجية . وحسبك أن تعرف أن ادبنا ليس أدبا مصرياً بل هو ادب عربي ابطاله المتنبي وابن الرومي والمعري . وحسبك أن تعرف ان لجزيرة العرب حرمة في نفس المصري أكثر مما

لمنفيس وان موسى من الانبياء المكرمين وان فرعون من الظلمة الفاسقين . ثم اذكر أن الطوبيات الدينية تغمر كل طوبى دنيوية اخرى

فهذه كلها عقبات تمنعنا من أن نحب مصر وتعترض العاطفة الوطنية في نفوسنا . فمنذ أن خرج البدو من جزيرة العرب على حضارة المصريين والرومانيين والاغريق ووطنية مصر شائعة في العالم الاسلامي ومدنيتها مغمورة بالبداوة العربية فليس لنا الآن آثار نحترمها ولا ظهر منا ابطال نذكرهم إلا ما كان في العصور القديمة

ثم هبت علينا نفحة من اوربا فعرفنا منها القومية والوطنية او بدأنا نعرفهما فصرنا الآن نذكر الفراعنة بالتبجيل بعد ان كنا نجاري أعداءهم في لعنهم وصرنا نشعر أننا مصريون. ولكن هذا الشعور لا يزال يحتاج الى تمرين حتى ينزل من العقل الظاهر الى العقل الباطن

فاذا احببنا مصر وصرنا نبجل شعراءها وكتابها بدلا من تبجيل الجاحظ والجرجانى . واذا صار الفلاح موضوع احترامنا وبطل اصلاحنا . واذا صرنا ننقل أساليب البناء عن الفراعنة ونشيد منازلنا على غرارها فعندئذ نحب مصر ويسوقنا حبنا لها الى تخيل الاخيلة الجميلة . واذا انت رأيت

أديباً لا يبالي بالفلاح في مصر فليس لذلك من معنى سوى أنه لا يحبه . وهو اذا لم يحبه فقد كره مصر لاننا نحن كلنا فلاحون

والحقيقة أن أدباءنا هم أدباء العرب أو أدباء الدولة العباسية أكثر مما هم أدباء مصر . وحالتهم هذه ابعد الحالات عن تخيل طوبى مصرية لأنها بعيدة عن حب مصر ومن أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره فاذا نحن ذكرنا مصر وتعاورت احوالها اقلامنا اسفرت مزاولتنا لوصفها ونقدها عن حبنا لاشياء وكراهتنا لاشياء أخرى فيها

وعندئذ فقط نبدأ بأن نحلم لمصر بنظام جديد وأن نرسم لها طوبى جديدة . لان الطوبى الحقيقية يبغي ان تكون نتيجة طرب الحب . وكيف نحب وطننا ما دامت عيوننا شاخصة نحو الشرق

فهمي

« الزمان نوع من المكان . فبدلا من ان اقول : منذ الف سنة حدثت تلك الحادثة . يمكنني ان اقول : ان تلك الحادثه حدثت في المكان الفلاني في الفضاء في دورة الارض الفلانية عند حركة الشمس الفلانية لو كان تحقيق حركتي الارض والشمس يمكن تعيينهما في مكان في الفضاء . فافهم عندئذ من هذا القول ما أفهمه من قولي : منذ الف سنة حدثت تلك الحادثة . بل يكون فهمي هنا أدق وادرا كي للحادثة أوضح »

كنت أتلفظ بهذه الالفاظ بصوت اسمعه كما هي عادتي عندما أريد ان أوضح لنفسي شيئاً غامضاً . لان اللفظة عندي هي أساس المعنى وليس المعنى أساس اللفظ

وأنا في هذا احاول ان اميز بين الزمان والمكان واذا بالنعاس يغلبني ويكاد يتطور الى نوم . ثم اذا بوعي العقل الظاهر ينقلب الى أحلام العقل الباطن . ثم فترة من التردد بين الصحو والغفو ثم النوم

ولكنه لم يكن نوما إلا في ظاهر الجسم أما في باطن الاعصاب والدماغ فقد كانت الافكار تتأجج والخواطر

تترادف وتتوارد وتتجمع ثم تتشتت وتتبدد . وبعد برهة فقدت الشعور بزمانها (او بمكانها) أحسست كأني أنحدر وئيداً الى حيث ينقشع الظلام ويتبلج الضوء ثم استنشقت أنفاس الصباح بل كرعت منها وعببت فيها كأني لم أذق طعم الهواء النقي منذ سنين . وهببت من فراشي وأنا أقول « تأخرت . تأخرت » ولكنني قعدت ثانياً في الفراش عندما نظرت الى ما حولي . فان الغرفة لم تكن غرفتي ولا الفراش فراشي . ونظرت الى الحائط فوجدت معلقاً عليه نتيجة وبها هذه الارقام ٧ فبراير ٣١٠٥

فتأملت ما حولي فوجدت المرتبة والوسادة واللحاف كلها مصنوعة من الكونشوك المنفوخ والغرفة نظيفة ناصعة . فقلت في نفسي : « لابد اني كنت مريضا وجاءوا بي الى هذا المستشفى اليهودي . اذ لا شك في أن هذه السنة يهودية تبتدىء من موسى . وموسى جاء قبل المسيح بنحو ١٣٠٠ سنة . هؤلاء اليهود لا ينسون تاريخهم . ولكنني لا أعرف لماذا أحضروني هنا فاني لا اتذكر اني مرضت »

ثم نظرت الى جسمي لارى به علامة جرح أو كسر فلم أجد . فكددت ذاكرتي ابحث عن حادثة في الماضي فلم أهتد . فقمت من الفراش وسرت نحو النافذة ولكنني لم

أحط خطوتين حتى صكت أذني صرخة فالتفت الى الوراء فرأيت فتاة تعدو وهي تقول: « النائم صحا . النائم صحا »

ولم تمض دقائق حتى سمعت المستشفى كله يردد هذه العبارة « النائم صحا » وبعد نحو ربع ساعة سمعت الشارع كله يتجاوبها . فتحاملت الى النافذة وانا اكاد اقع من الضعف واطللت فرأيت جموعاً من الناس في هيئة غريبة يتصايحون: « النائم صحا . ها هوذا ينظر . انه شاحب . قد لا يعيش . يجب أن يرد الى الفراش . أين الممرضات والاطباء ؟ » وكان الآباء يحملون الاطفال على اكتافهم لكي يروني من الزحام . وحلقت في الجو قريباً من النافذة نحو خمسين طيارة صغيرة ووقفت ينظر اليّ ركابها

وبينما أنا مشغول بهذا المنظر واذا بيد توضع على كتفي فالتفت فوجدت رجلا نحيفاً طويل الوجه ضخم الرأس عليه ملامح البنات يقول لي بصوت عذب: « هل لك ان تعود الى الفراش ؟ انت ما زلت ضعيفاً »

وكان في ألفاظه حلاوة واغراء فعدت الى الفراش واضطجعت . فقعد على كرسي بجانب سريري وأخذ يجس نبضي ويفحص لساني ويتحسس أجزاء في جسمي . ثم قال :

« يبدو لي انك قد عوفيت . ولـكن يحسن عقد مجلس من الاطباء للاقرار على شأنك »

فقلت : « ماذا كانت علتي ومتى يسمح لي بالعودة الى البيت ؟ »

فضحك ضحكة طويلة دون القهقهة وقال : « يظهر انك تجهل كل شيء . لقد مضى عليك هنـا ١١٨٠ سـنة . ان حادثتك غريبة فقد اصبت سنة ١٩٢٥ بفالج في الدماغ فذهب عنك وعيك وبقيت سائر أعضاء جسمك تعمل كما لو كنت صاحياً . كنا نغذيك وانت نائم حتى ذهب عنك الفالج فصحوت الآن . لقد نمت ١١٨٠ سنة »

ولـكن هذا الـكلام لم يجز الى عقلي ورأيت من العبث أن اجادل هذا الرجل . فتجاهلت كل ما قاله وقلت بثبات وعزم : « أريد ان ارى عائلتي »

فعاد الى ضحكته التي تراءت لي هذه المرة انها سخيفة حداً وتبدت على وجهه عندئذ ملامح الوغد الذي يتعلل لحبسي وايهامي أوهاماً كاذبة . فقلت وصوتي يتهدج بما يهيج نفسي من الغيظ : « اذا لم أذهب الى عائلتي فانا أقفز من هذه النافذة وأنتحر . وأنت المسئول »

فعلت وجهه حمرة الاضطراب وقام يتلطف ويسرّي

عني ويقول : « ستخرج قريباً بعد استفتاء المجلس . لا تخش شيئاً . كلنا يحب لك الخير والراحة . لا تخش شيئاً . انظر . قد حضر بعض الاعضاء »

فنظرت الى الباب فاذا بخمسة أو ستة أشخاص يسيرون نحو غرفتي . وتأملتهم عند ما دخلوا فوجدت فيهم اثنتين من النساء . وأخذوا جميعهم يفحصونني وأقروا على ان صحتي جيدة وأذنوا لي في الخروج بعد تناول الطعام

فقدم لي طبق من فواكه مختلفة لا أعرف أسماءها ولم يقدم لي شيء مطبوخ . فقلت : « هذا لا يقيتني . أرجوكم أن تحضروا لي لحماً وخبزاً فاني أشعر بالجوع الشديد »

فلاطفني أحدهم وأخبرني بان في هذه الفواكه ما يزيد عن حاجة جسمي من الغذاء وفيها طعوم مختلفة حلوة وملحة . ثم رتبها لي فاكلت أولى الأثمار فكانت تشبه في طعمها اللحم ثم اكلت شيئاً من الجوز وكان يسيل دهناً ثم تناولت ثمرة جميلة اللون ذكية الرائحة قريبة في الطعم من الكمثرى وأحسست بالشبع والري من هذا الطعام اللذيذ

ثم انفض المجلس وبقي الشخص الاول . فقال لي : « والآن هل تريد أن تخرج الى المدينة ؟ »

فقلت : « أجل . هذا ما أريد » فناولني سراويل

ومعطفاً لبستها وخرجت معه

وما اشد ما كانت دهشتي عندما رأيتني في مدينة غريبة يتزاحم أهلها لرؤيتي . وكأنوا كلهم يشبهون رفيقي طوال الاجسام ضخام الرؤوس نحيفي الابدان لا يختلف الرجل عن المرأة الا في ان له شاربين دقيقين . أما اللحية فكنت أرى شعرات في مكانها أو لا أرى شيئاً . وكانت افواههم صغيرة وبعد ان اختلطت بهم عرفت ان ليس لهم اسناناً في الفك الاسفل . اما اسنان الفك الاعلى فلم يبق منها الا اعجازها . واخبرني هذا الشخص الذي كلف بمرافقتي عن اشياء كثيرة خاصة بي وبالمدينة التي نسير فيها . فحكى لي كيف اني عشت عيشة نباتية وانا منسطح على فراشي دون ان اعي وكيف ان هذه المعيشة كانت سبباً في ان اعمر هذا العمر الطويل لأني صرت بمثابة الشجرة لا اجهد الا اقل الجهد . وكيف ربت اموالي حتى صرت الآن من أغنى الناس . ففي سنة ١٩٢٥ كنت املك خمسين فداناً ولم يكن ينفق عليّ بعد الفالج الا ريع عشرة فدادين وما تبقى من الريع يتوافر باسمي حتى ان اولادي لم يرثوا شيئاً مني لا هم ولا احفادهم لانه على الرغم من مقاضاتهم لي لم تستطع محكمة ان تقر على موتي . فتراكمت أموالي بهذه الطريقة . ثم قص

عليّ تاريخ مصر في الالف السنة الماضية وكيف حدثت فيها ثورات اشتراكية وكيف اخفقت التجارب الاولى للحكومة ثم انتهت بالنظام الحاضر . وأخذني في اليوم الاول لخروجي من المستشفى وأراني بعض مناظر مصر أيام كنت أعيش فيها قبل ان امرض فعرض عليّ جملة أشرطة سينماتوغرافية رأيت بلادي كما كنت اعرفها . ثم عرض عليّ اشرطة أخرى للمائة السنة التالية ثم الثالثة وهلم جرا الى ان ابلغني مناظر «خيمي» أي مصر في عصره

وكان قد استقر في ذهني الآن ان ما رواه لي عن مرضي صحيح وقد كنت في حياتي السابقة اعرف شيئاً عن نظرية التطور بل أدعو الى الايمان بها فلم يكن من الصعب اذن ان استضيء بضوئها في الظروف الحاضرة . ولكن علمي بهذه النظرية أسقط كرامتي بعض الشيء فاني كنت أنظر الى نفسي كأني متأخر عن هؤلاء الناس نحو ١٢٠٠ سنة وكأني بينهم بمثابة انسان متحجر حي . والحق انهم كانوا ينظرون اليّ على الرغم من تأدبهم هذه النظرة المهينة . فقد كنت أرى عيونهم تثبت في وجهي وتتفحص هيئة دماغي وكان صبيانهم يتجرأون احياناً على لمس لحيتي

ويتعجبون من خشونتها كما كانوا يصرحون أحيانا اخرى بتعجبهم من صغر رأسي

وعدت عند الاصيل الى غرفتي فوجدت ممرضتي التي قدمت لي طعاماً من الفاكهة أيضاً . وأخذت معها في الحديث وكان قد غادرنا رفيقي . وشعرت ونحن في وحدتنا بالغرفة بشعور عائلي بيني وبين هذه الفتاة . فقد عرفت منها أنهـا عنيت بتمريضي نحو ثلاثين سنة وكان هذا وحده كافياً لان أدل عليها بحق الصحبة القديمة والعشرة الطويلة . ثم قصت عليّ حالي أيام مرضي ولم تكن القصة طويلة إذ كانت تتلخص في أني كنت في سبات يشبه حال بعض الحيوانات وقت تشتيتها حين تنجحر وتنام ثلاثة او اربعة شهور لا تأكل فيها ويقتصر نشاط جسمها على التنفس مع دورة دموية بطيئة جداً . ولما رأى الاطباء أني سأموت لا محالة اذا لم أتغذّ صاروا يحقنون عروقي بمواد مغذية نحو مرة كل شهر تقريباً فكانت الحقنة تمسك رمقي . واتبع الاطباء هذه الطريقة معي وجعلوني أعجوبة الدهر حتى قيل لي انه قد ألفت كتب عن حياتي هذه وتعليلها بجملة علل وآخر ما ظنه بعضهم اني اختلف عن سائر الناس في تركيب بعض الغدد المنقطعة

وقد ارتأى بعضهم تشريحي بعد موتي ولكني أخلفت ظنهم اذ صحوت

وكانت الفتاة تخاطبني بصوت جميل فيه بحة مستملحة وكانت طويلة ضخمة الرأس لا يكاد يكون لها صدر يشبه صدور النساء البارزة . وكانت تلبس لبس بني عصرها فالساقان والذراعان والرأس عارية والحذاء بلا جورب . وليس على جسمها من الملابس سوى قطعة من نسيج واسع متخلخل أشبه شيء بالكوتشوك يغطي ما بين العنق والساقين . وكان الرجال والنساء سواء في ذلك . أما شعر الرأس فكان يرخى حتى يغطي بعض الوجه والقفا

وألفت هذه الفتاة التي عرفت ان اسمها « راديوم » وشعرت منها كأنها قد ألفتني . وكان في نظرتها لي شيء يحببها الي اذ لم أكن أرى في عينيها ذلك الاحتقار الذي كنت أراه من سائر اهل خيمي عندما كانوا يتفرسون في هيئة رأسي وكونها دون رؤوسهم في الحجم . وكانت تشرح لي كل شيء خاص بأحوالهم ومعاشهم ونظامهم وكنت كل يوم يزيد ارتباطي بها وتعويلي عليها حتى كنت أقف في جانبها كالطفل في جانب أمه

وشرحت لي غذاءهم فوجدت أنهم لا يعرفون الطبخ

ولا يذبحون الحيوان لانهم قد استنبتوا من الأثمار فواكه مختلفة منها ما ينفع غذاء ومنها ما يستعمل دواء . وبعض غذائهم كالنشا والسكر كانوا يستحضرونه من الجماد أي بالتركيب الكيماوي . وكانت الزراعة في ايدي ناس خبراء لكل منهم معمل يستولد فيه البزور الجديدة ويقايس فيه الاغذية المختلفة مع طعومها الحلوة والمزززة والمملحة ولم تكن عنايتهم بالأثمار من حيث الغذاء فقط فقد كانوا يلتفتون ايضاً الى الارج واللون بحث لا يقعد الانسان الى طعامه حتى يرى ما يغذو العين والخياشيم كما يرى من الطعم ما يلذ للسان

وكانت مساكنهم في غاية العجب . بعضها مؤلف من طبقات يحتوي المسكن على نحو مائتي نفس تقريباً من اولئك الناس الذين يميلون الى الالفة والاجتماع . بينما كانت هناك منازل منفردة بين الحقول يعيش فيها المغرمون بالعزلة أو المنكبون على درس موضوع خاص يستغرق كل وقتهم ويصرفون اليه جميع قواهم . وكانت حياتهم تسهل على الانسان الانفراد لانه كان يجد في وحدته كل ملاذ الاجتماع اذ كان يجد في غرفته جهازاً للتلفون الاثيري فيسمع من الخطب والمحاضرات والاخبار ما يشاء ليلا أو نهاراً وكان اذا أراد ان يخاطب صديقه مثلت له صورته وسمع صوته

وهو قاعد في غرفته لا يريم . ولم يكن بالمدن ذلك الغبار الذي كنا نراه لان الشوارع كانت جميعها مغطاة بالخشب أو السكوتشوك حتى الطرق الزراعية كانت كذلك تقوم على جوانبها المصابيح السكهربائية فلم تكن البيوت تحتاج الى كنس وتنظيف لا ينقطعان . ثم كان أثاث المنازل يساعد على النظافة لانه صار كله تقريباً من السكوتشوك . وكانت الغرف تدفأ وتضاء كما كان بها ايضاً مراوح تدار باللاسلكي وكان لكل فرد تقريباً أتوموبيل خاص او طيارة صغيرة وكلاهما يدار ايضاً باللاسلكي

ويمكن ان اقول ان حياتهم كانت على وجه العموم انفرادية من الوجهة الحسية ولكنهم كانوا في انفرادهم أكثر اجتماعاً منا من الوجهة المعنوية . فاني لم اعرف بينهم انسانا لم يسمع غناء كل يوم أو لم يشاهد درامة تمثل في مكان قد يبعد عنه بألف ميل او لم يخاطب اصدقاءه النائين عنه في اقطار اخرى مرة كل اسبوع على الاقل ويرى وجوههم ويضاحكهم ويجادلهم . فلم يكن ثم ما يدعو الى ان يعيش هؤلاء الناس معاً ثم كان لكل منهم مركبة هوائية او ارضية تنقله الى حيث شاء بأسرع من الريح

ولكني مع اعجابي بهم لا أنكر اني امتعضت كثيراً

عندما علمت أنهم لا يعرفون الحياة العائلية كما كنا نفهمها .
ومما زاد امتعاضي وألمي اني وجدت راديوم في غاية الجهل وسوء العاطفة نحو هذه الحياة . فقد كانت عواطفي توسوس الي وساوس لذيذة عن حياة زوجيـة مع راديوم فأتمثلها معشوقتي وزوجتي تسكن الي وأسكن اليها في مسكن يكون عشنا الذي نأوي اليه معاً ويكون لنا من ثمرة الحب المتبادل صبيان روقة نتمتع برؤيتهم اطفالا و نشعر في تربيتهم بلذة الابوة

ولم تكن راديوم والحق يقال تشذ عن بنى جنسها في سوء العاطفة الغرامية . فانهم كانوا جميعاً جامدين باردين ينظرون بعقولهم أكثر مما كانوا يحسون بعواطفهم ولا أذكر اني رأيت احداً منهم يغضب الى الاحتداد أو يفرح الى الطرب فأقصى غضبهم امتعاض وأقصى فرحهم ابتسام اوضحك لطيف . ولم يكن الزواج لديهم قائماً على اعتبارات العشق بل على اعتبارات المعيشة والغاية والنسل . فاذا سمع أحدهم عن فتاة تبحث أبحاثه وتدرس ما يدرسه تخابرا وينتهي تخابرهما الى ألفة بحيث يعيشان معاً في مسكن واحد ولكنهما مع ذلك لا يجوز لهما النسل الا بعـد شهادة من الحكومة بأنهما جديران بالنسل

وكان النسل اخطر ما تعنى له حكومة خيمي . والحق

اني عندما أتأمل في احوالهم أجد أنها كلها تدور حول العناية بالنسل . فقد استقر في اذهان هؤلاء الناس ان الانسان كان في الزمن البعيد يشبه القرد وانه بالعناية والانتخاب يمكن أن يرقى الى ان يكون حيوانًا راقيًا جداً من حيث العواطف والعقل . ومما ساعدهم وشجعهم على هذا النظر ان الاشرطة السينماتوغرافية التي حفظت لهم تاريخ الف ومائتي عام قد وقفتهم على احوال آبائهم ودرجة رقيهم المنحطة وكيف تدرجوا في الرقي الى ان وصلوا الى حالتهم . فلم يكن فيهم من يستطيع التنطع بمجد الآباء لان هذا المجد كان يرى على لوحة السينماتوغراف فترى عندئذ الوجوه الدميمة والغبار المتطاير والشوارع القذرة والرؤوس الصغيرة . وأذكر أني تصببت عرقًا من الخجل عندما رأيت شريطاً خاصاً بأحد الموالد كانت احدى الشركات قد اخذت صوره سنة ١٩٢٤ من القاهرة وتعجبت كيف كنا نعيش في ذلك الوسط القذر

وكان عند ما يولد غلام جديد تحضر للمنزل لجنة من العلماء فتفحص جسمه فان الفته يليق للحياة والا قتلته في المكان . ولم يكن الابوان يغضبان من ذلك وكنت اسمع منهم ان اكبر ما يقتل لاجله الاطفال هو « الردة » أي انهم يردون الى أصلهم فيخرجون برؤوس صغيرة

وقد تحادثت مع راديوم كثيراً عن هذا الموضوع فوجدتها لا تستفظع قتل الاطفال وأجابتني بلهجة باردة جداً بأنهم لا يحسون بالموت أكثر من أي حيوان آخر وان مصلحة الامة والاجيال القادمة تقتضي ذلك . أما طريقتهم في التربية فكانت في نظري أفضل ما عندهم . فقد كان الطفل يبقى مع أبويه نحو ست سنوات ثم يؤخذ بعدها الى المدارس حيث يعلم تعليماً عملياً لذيذاً . فكانت الجغرافية والتاريخ وأيضاً التاريخ الطبيعي تعلم بالسينماتوغراف فكان الصبي الذي لم يتجاوز العاشرة يعرف عن هذه الاشياء من المعارف الصحيحة أكثر مما يعرفه طالب قد بلغ الثلاثين في مدارسنا القديمة . وكانت المدرسة عبارة عن ورشة ومكتبة يتنقل بينهما الطالب وكان يمتحن امتحانين أحدهما امتحان حضارة خاص بنظام الحكومة وتركيب الآلات المختلفة والزراعة والكيمياء ونحو ذلك مما تقوم به الحضارة . والآخر امتحان ثقافة حيث يدرس تاريخ الامم والانسان القديم والفلسفات المختلفة التي نبتت من أذهان الناس من العصور البعيدة والاديان والآداب ونحو ذلك . وكان الطالب لا يترك المدرسة عادة قبل الاربعين . ولم تكن هذه المدة طويلة اذا اعتبرت ان أهل خيمي كانوا يعمرون الى نحو مائة

وخمسين سنة . وكانت السياحات البعيدة الى ثلوج القطب الجنوبى أو الى بوادي الصحراء او الى الجبال الشامخة من ضروب التربية التي يرباها الشباب . فكان الشاب لا يخرج من المدرسة الا وقد رأى العالم كله تقريباً

أما نظام الاعمال والتكسب فكان يشبه ما كنا نسمع عنه من الداعين للاشتراكية في زماننا . فقد كانت خيمي مقسمة الى ضياع بها دساكر يتبع كل دسكرة نحو الف فدان وبها مصنع وكانت الزراعة كما نفهمها الآن قليلة لانه لم يكن يحرث من هذه الالاف سوى نحو خمسين أو ستين فداناً لزراعة النباتات الغريبة السنوية . أما سائر الارض فكانت مغطاة بالاشجار المعمرة يؤخذ منها الطعام واللباس والوقود . ولم يكن الري من النيل كما كان في عهدنا لان هذا النهر كان قد جف تقريباً لان اهل خيمي صاروا يزمون السحاب بازمة علمهم يرتفعون فوقه بالطيارات ويطلقون عليه من المواد الكيمائية ما يجعله يتكاثف ويقع مطراً في أي جهة ارادوا وفي أي وقت شاءوا . أما مصانع الدسكرة فكانت تصنع كل شيء تقريباً بحيث أن كل دسكرة كانت مستقلة في معاشها عن الاخرى الا في أشياء قليلة تتبادلها واياها . وكان أهل النقابة أشبه شيء بشركة تعاون . ولم يكن يحتاج احدهم الى

العمل لمعاشـه أكثر من ساعة في اليوم وسائر نهاره وليله يقضيه في المتع الذهنية المختلفة وفي متابعة أبحاثه العلمية اذ قلما كان يخلو فرد من أبحاث علمية يملأ بها فراغه سواء في ذلك الرجال أو النساء

وكانت حكومة خيمي مؤلفة من خمس هيئات : الهيئة التشريعية والهيئة القضائية والهيئة الصحافية والهيئة الدينية ثم أخيراً الهيئة التنفيذية

فأما الهيئة التشريعية فلم تكن منتدبة من أفراد ينتخبونها كما كنا نعهد في زماننا بل كانت تنتخبها النقابات المختلفة فلنقابة الاطباء مثلا ١٠ أعضاء ولنقابة البيولوجيين أي علماء علم الحياة ١٠ آخرون ولنقابة علماء الزراعة ١٠ ولنقابة النجارين ١٠ وهلم جرا حتى يتألف من ذلك مجلس به نحو ٥٠٠ عضو هو السلطة العليا للتشريع

أما الهيئة القضائية فكانت أقل الهيئات ظهوراً في الامة لقلة عدد المتقاضين . وكان القضاة ينتخبون عادة من طبقة رجال العمران والبيولوجية للفصل في من يجب قتله من الناس أو منعه من التناسل ولم يكن ثم عقاب آخر

أما الهيئة الصحافية فكانت مؤلفة في الحقيقة من عدة هيئات فاحداها مثلا تشتغل باصدار صحيفة يومية اما لاسلكية

واما مطبوعة عن الكيمياء . وأخرى تصدر صحيفة أخرى عن الادب وأخرى عن الطب وهلم جرا . وكانت الجامعات من الهيئات الخاصة باصدار الصحف ولم يكن نظام الجامعات عندهم يختلف عما كان عندنا

اما الهيئة الدينية فكانت مؤلفة من نقابة عامة من الفلاسفة ولم يكن يقبل فيها أحد دون السبعين وكان رأيها هو الاعلى في تقرير ما يؤثر في ذوق الامة ومزاجها وقصدها . فكانت تعين طريقة تدريس التاريخ وتقرر بناء التماثيل لبعض مشاهير التاريخ او هدمها . وتقيم التماثيل الخاصة بالجمال أو بالكفايات الانسانية الاخرى في الميادين . وكذلك الحال في الموسيقى والتصوير والرقص تأمر وتنهي فيها كلها لان أهل خيمي يعتقدون ان ديانة الانسان أحرى بأن تتكون من هذه الاشياء من أن تتكون من العقائد المحفوظة عن ظهر قلب كما كنا نفعل في ايامنا . ولاهل خيمي معابد يتعبدون فيها على انفراد على عكس ما كنا نفعل . والمعبد عبارة عن بناء مستطيل كبير على جدار من جدرانه الاربعة صور تمثل بزوغ الحي الاول وتطوره الى الانسان ثم ما تخيله هؤلاء الفلاسفة وتنبأوا به عن مستقبل الانسان في صور أخرى تمثله ضخم الرأس كبير العينين شريف الطلعة دقيق الاطراف

والانامل . وفي جدار آخر صور أخرى تمثل ارتقاء الصناعة من عهد الانسان الحجري الى زمن أهل خيمي . وفي جدار آخر صورة عجيبة لمركز الارض في هذا الكون ونسبته اليه وفوق الارض انسان يتأمل مركزه في هذا الفضاء الواسع . وفي الجدار الرابع صور الفلاسفة والانبياء العظام وعلى شفتي كل منهم كلمة بارعة أثرت عنه وصار لها أثر في التاريخ . والخيمي انما يذهب الى المعبد ليتبين قصده في الحياة اذا أحس بسأم أو ضلال فيقعد هناك منفرداً ويحاول أن يتصل بالكون وأن يعرف مركزه ومهمته فيه فيرتاح قلبه ويهدأ ضميره . واذا استمر به السأم قصد الى احد رجال الهيئة الدينية فيدرسه ويعنى به ويفتح له ابواباً ينشط بها نفسه .

اما الهيئة التنفيذية فكانت مؤلفة من موظفي الحكومة المحليين والعموميين وعليهم انفاذ أوامر سائر الهيئات

وتتلخص حياة الفرد في انه يبقى مع أبويه نحو ست سنوات ثم يذهب الى الجامعة ولا يبرحها حتى الاربعين تقريباً وهو في تلك المدة يرى أبويه ويعايشهما . ثم يخرج فيشتغل في احدى الصناعات اليدوية وينتمي الى نقابتها وعندئذ يصير فرداً ذا رأي في مصير الامة لانه ينتخب عن

سبيلها النواب في الهيئة التشريعية والقضاة واحيانا الصحافيين ونقابته عبارة عن شركة تعاون أيضا فاذا دارت السنة عمل حساب الشركة ما باعته من حاصلات الدسكرة الزراعية والصناعية وما اشترته ثم توزع الارباح على الافراد كل بنسبة عمله . والجزاء يستوي تقريباً بين جميع الاعضاء لان المال انحطت قيمته عند أهل خيمي ولكن هناك أفراداً لهم نزعات خاصة يهوون مثلا امتلاك بيت صغير يزينونه بما شاؤوا من التحف . فهؤلاء يشتغلون اكثر من غيرهم لكي يتوافر لديهم من المال ما يقتنون به ما يشتهون من هذه التحف . ونقابة الدسكرة لا تمانع في ذلك بل تشجع عليه لان مآل هذه الممتلكات ملكيتها بعد وفاة أصحابها اذ ان مبدأ الارث كان قد ألغي منذ زمان بعيد . ومعظم ما ينفق الخيمى ماله عليه هو الطعام والاتوموبيل والطيارة (ولكل منهما عداد وهما يسيران باللاسلكي) اما المسكن فيعطى لكل فرد بالمجان وكذلك الماء والنور والحرارة . وللنقابة مخازن يباع فيها الطعام واللباس بأخس الاثمان

واهل خيمي لا يبالون بكثرة النسل بل بجودته . فقد كانت مصر في سنة ١٩٢٥ نحو ١٥ مليونا اما في سنة ٣١٠٥ فانهم نزلوا الى نحو ١٠ ملايين فقط . ولكن ليس فيهم

واحد يجهل الفلسفة أو مقداراً كبيراً من العلوم الاخرى وقلما يموت أحد منهم دون ان يكون قد ساح الى القطب وعاد منه وذلك لانهم وجدوا ان العبرة بالاشخاص كيف هم وليس كم هم

* * *

كان بن عربي الاندلسي يقول : « لا ينبغي للعبد (يعني للانسان : . .) ان يستعمل همته في الحضور في مناماته بحيث يكون حاكما على خياله يصرّفه بعقله نوماً كما كان يحكم عليه يقظة . . . »

وبعبارة أخرى ما نشتهيه في اليقظة نراه في النوم . فلا تهزأ بعد ذلك بالاحلام